الدكتور عبد العزيز الدوري

الجذور التاريخية للشعوبية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

« وقد جعل (الله) اسماعيل ــ وهو ابن اعجميين ــ عربيا ، لان الله (تعالى) فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ثم حباه من طبائعهم (اي العرب) ومنحه من اخلاقهم وشمائلهم وطبعه من كرمهم وانفتهم وهممهم على اكرمها واسناها » .

الجاحظ

الجذور التاريخية للشعوبية

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى ـ شباط (فبراير) ١٩٦٢
الطبعة الثانية ـ تموز (يوليو) ١٩٨٠
الطبعة الثالثة ـ تشرين الثاني ١٩٨١

مقدمة

ان تاريخ الامة متصل مترابط يكوّن سلسلة حلقات متتابعة، او مجرى متصلا ، يؤدي بعضه الى بعض . وحاضر الامة نتاج سيرها التاريخي وبداية طريقها الى المستقبل . ولذا فلا انقطاع في التاريخ ، ولا ظاهرة تبدو فيه دون جذور وتمهيد .

وهذا يعني ان فهم حاضر الامة يوجب دراسة الجذور وتفهم سيرة الامة عبر العصور . ومثل هذا لا يعني الرجوع الى الوراء ، بل يعني فهم ذات الامة ويعني التحرر من عبء التاريخ، وتيسير الحركة البناءة في سير الامة الى الامام .

والاتصال في تاريخ الامة لا يعني ان التاريخ حركة رتيبة ، او ان الامة سارت بنفس الخطوات خلال تاريخها ، بل ان فيها فترات تزخر بالحيوية والتوثب واخرى تتصف بالحركة التدريجية والتطور الهادىء . ولكل امة فتراتها الثورية ، وهي في الواقع انطلاق صاخب لقوى تجمعت خلال فترات من الكبت او من التطور السريع الواسع ، او هي تعبير عن غليان داخلي انفجر في ثورة صاخبة . وقد تكون لهذه الفترات آثارها البعيدة في الفترات التي تعقبها او في فترات تالية . ومن هنا تتباين فترات تاريخ

الامة في سيرتهـا عبر العصور . فقد يكون اثر فترة بعيدة اقوى في حاضر الامة من فترة قريبة من هذا الحاضر .

ثم ان فترات الازمات في تاريخ الامة تكشف عـن تياراتهـا الخفيـة او عـن جذور عريقـة لا نحس بهـا الا اثناء الازمة . ان الازمات تلقي اضواء كشافـة على جوانب القوة والضعف في حياة الامة بصورة قد تكـون اخاذة او مريعة ، ولكنهـا على كل حـال تكشف الكثير وتبصّر الامة بامكانياتهـا ونواحي ضعفهـا ، فـان توافرت لهـا الحيويـة اجتازتهـا وهي اقوى واثبت وارسـخ وأقدر علـى الحياة الكريمـة .

والامة العربية تمر بدور توثب ثوري وبدور ازمـة . وقـد كشفت الازمة والتوثب عن جذور ، ورافقتهـا ظواهر موغلـة اصولهـا فـي القدم .

ومن مزايا فترات التوثب السرعـة في الحركة والتحمس للانطلاق والرغبة في البناء والاستعداد لكل تضحية . ومن محاذير هذه الفترات النظـر الى الارث بشك ، والترحيب بالحركة وان سارت دون توجيه او تخطيط .

وتعتمد الحركـة المستنيرة الى حد كبيـر على فهم الذات، وعلى استيعاب تجارب الامة وخبراتها . ولا نريـد هنـا الا ان ننظـر الى جانب محدود وهو الشعوبية . وهي محاولة طبيعية توجبهـا ظروفنا . فقد ارتفعت اصوات تدعـو الى نبذ التـراث والاستهانـة بالثقافـة العربية ، وحملوا على المثل العربيـة الاسلامية واعتبروا كل التفات اليهـا رجعية . وتهجموا علـى الوعي العربي وعلى مفهوم الامة العربية وراحوا يثيرونهـا فتنـة باسم العنصريـة أو الاقليمية . وجهـد البعض عامليـن علـى التفتيت ، وراحـوا يروجـون الدعوة لمفاهيم غريبة ، ويدعـون الى تقليد الغير فكرا او عمـلا على اساس الاختلاف في الجذور ، ورسموا خطوطـا بعيدة عـن التكويـن التاريخي المفهوم .

لكل هذا نريد القاء نظرة علمية نقدية على جذور الشعوبية في المجتمع العربي . ولا حاجة بنا لوصف الشعوبية المعاصرة ، بل يكفينا ان نفهم الجذور فهما عاما سريعا يرسم الخطوط ويكشف الخيوط . وكلنا ثقة بان الروح العلمية خير سبيل لفهم الذات ولمعرفة النفس . ومن عرف نفسه وعى تجربته وادرك طريقه .

كانون الاول ١٩٦١

نطـاق الشعوبيـة

بدات الحركة الشعوبية في الفترة الاموية الاخيرة ،واندفعت بقوة في العصر العباسي ، وهي تمثل جانبا من محاولات شعوب غير عربيـة لضرب السلطان العربي عـن طريق الفكر والعقيدة . فهي في اندفاعها تتكشف عن صراع ثقافي ديني واسع .

ولما كان سلطان العرب يستند الى الاسلام ، اذ انه قام بـه واستقام به ، فـان بعض الجماعات الخاضعة للسلطان العربـي تدرجت في اندفاعهـا الى مهاجمـة الاسلام بعدئذ .

وقد ظهرت الحركة في العصر الاموي في اطار الاسلام ،وبدت وكانهـا تحمل روحا اسلامية ، حيـن دعت الى مساواة الشعوب الاخرى بالعرب فـي الادارة والمجتمـع ، ثم انكشفت اهدافهـا الحقيقيـة في العصر العباسي .

ولتوضيح ذلك ، يجدر بنـا ان نلاحظ ان حركـة الاعاجـم اقتصرت في العصر الاموي على صفوف الموالي ، ولم تقم ثورات بيـن الاعاجم من غير المسلمين كما هـو الحـال فـي العصر العباسي . فهي اذ تتستر في الفترة الاولـى ، تبدو صريحة في الثانية، وقد تركزت هذه الحركات في العراق لا في فارس طيلة الفترة الامويـة .

وقد شارك الموالي في حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي (٦٤ ـ ٦٧ هـ) وفي ثورة ابن الاشعث وفي حركة الحارث بن سريج المرجئي كما ساهموا بنشاط في الدعوة العباسية .

وتبدو مشاركة الموالي في هذه الحركات اشتراكا في ثورات عربية ، قادها العرب ووجهوها . والواقع ان العرب هم الذين نظموا الموالي في العصر الاموي واشركوهم في الثورات لدوافع اسلامية او حزبية . واذا كان العرب قد نظموا الثورات لدوافع خاصة بهم ، فان للموالي دوافعهم الخاصة ،وقد تلونت مشاركتهم احيانا بتذكر الامجاد الماضية او باحياء الاراء الدينية الفارسية القديمة . وتبدو هذه الوجهة اكثر وضوحا باتساع نشاط الغلاة الذين تظاهروا بالاسلام ، حتى ان بعض الحركات العربية شجعتهم رغم خطر اتجاههم كما هو الحال في حركة المختار وفي الدعوة العباسية .

ولا بد لنا ان نتذكر ان الاتجاهات السياسية والاجتماعية تتخذ طابعا دينيا ووجهة دينية في مجتمع يستند الى الدين وتجاه سلطان يقوم على الدين . ولذا يتعذر علينا ان نفصل بين الجانبين ، كما ان الواقع التاريخي يشير بوضوح الى اجتماع الوجهتين الدينية والسياسية لدى الشعوبية ، وخاصة في دور نشاطها .

ويهمنا هنا ان نتبين اطار الموضوع ، وان نحدد مفهومه ومجاله الجغرافي . وقد لا يكون هذا يسيرا في حركة بين التصريح والتلميح ، وبين التستر **والظهور** .

لقد نشطت الشعوبية بصورة خاصة في العراق ، كما تدل الآثار الادبية الباقية من اقلام الجاحظ وابن قتيبة وابي حيان التوحيدي وسهل بن هارون وابن المقفع وبشار بن برد وغيرهم ، ثم في الاندلس كما نرى في كتابات ابن عبد ربه وابن غرسية ويحيى بن مسعدة وغيرهم . ولكن هذا لا يعني ان الحركة الشعوبية اقتصرت على هذين القطرين ، بل نجد آثارها في

بلاد اخرى من دار الاسلام ، ولكنها اقوى ما تكون في العراق وفارس والاندلس . وقد يكون هذا ناشئا عن وجود دول وامجاد انتهت بالفتوحات العربية في هاتين الجهتين الساسانية في فارس والقوطية في الاندلس ، وعن وجود حضارات فيهما غمرها الاسلام ، بالاضافة الى انهما على اطراف الاراضي العربية (او التي تعربت) ، وفيهما تلتقي التيارات الثقافية والدينية المتعارضة وتتصادم . ويكفينا هنا ان نركز على الطرف الشرقي ، لخطورته الثقافية والسياسية ولعمق جذوره الحضارية .

واما مفهوم الشعوبية فانه اشد تعقيدا ، اذ لا بد لنا من اساس نستند اليه في التحديد .

لقد قام الاعاجم بحركات كثيرة وخاصة في العصر العباسي، بعضها ثوري مسلح وبعضها الاخر مستور . ونحن يتعذر علينا ان ندخل الثورات المكشوفة التي قامت باسم الديانات الفارسية المجوسية او تلك التي نادت بالانفصال الصريح ودعت لامجاد فارس الساسانية كثورة المقنع (١٥٩ ــ ١٦٣) او ثورة بابك الخرمي (٢٠١ ــ ٢٢٣) ضمن الحركات الشعوبية . ولكن الحركات السرية التي تتظاهر بالاسلام وتعمل على هدم السلطان العربي الاسلامي او على هدم الاسلام ، او الاتجاهات التي تحاول نسف الاسلام والعرب من الداخل هي التي يمكن ان يطلق عليها اسم الشعوبية . ثم ان الجهود التي بذلت لمسخ التراث العربي او لتشويه دور العرب في التاريخ تمثل جانبا اخر من المحاولات لهدم الكيان العربي ، وتكون طرفا مهما من الحركة الشعوبية .

وان نظرنا الى الموضوع من ناحية اجتماعية ، وجدنا جماعات على مستويات مختلفة تساهم في هذه الحركات والفعاليات ، بين عامة وتجار وكتاب ووزراء وامراء ، بين اميين ومثقفين . ولكن دور الفكر او العقيدة اساسي في هذه الحركات حتى غلبت هذه

الناحيــة على نشاط الشعوبية وهذا يعنــي ايضــا ان الشعوبية ليست حركــة فئة معينة او طبقة اجتماعيــة ـ ان جاز التحديد ـ بــل انهــا تمثل اجتمــاع الجهــد الذي بذلته فئات مختلفة مــن شعوب متعددة لزعزعة السلطان العربي ، او لاضعاف الاســلام وارباكه ، ولصد تيار الثقافة العربية الاسلامية ، ولنسف التراث، كمــا حاولت تركيز الوعي السياسي والدينــي بيــن صفوفهـــا واحيــاء تراثها الثقافي .

احتدم الصراع بيــن العرب والشعوبية ، وتعرض الاســلام والكيان العربي لاختبار شديد ، وخرج العرب اشــد تماسكــا من قبل ، وتبلورت الفكرة العربيــة لديهم ، وانتصر الاسلام علــى الزندقــة وشهد ازدهار علم الكلام .

وبضوء هذا التمهيد ننظر الى نشأة الشعوبية ، واتجاهاتها، ومن فوائد التاريخ انه يلقي اضواء تكشف الجذور وتساعد علــى فهم الحاضر ، ويمكــن من الاعداد للمستقبل بوعي وادراك .

البيئة العامة للشعوبيـة

بانت بوادر الحركة الشعوبيــة في العصر الاموي ، وظهــر بعض ممثليهــا بوضوح في مطلع القرن الثاني للهجرة ، بين شاعر يتغنى بامجاد ساسان ،وزنديق يبشر بالمانويــة وكاتب ينقل تراث الفرس القدمــاء في الحضارة والدين ، ولكن بداياتها محاطــة بالغموض لانهــا بدات عملهــا في جــو مــن الحذر والكتمان ، بل انه يتعذر علينــا تحديــد هذه البداية .

التسويـة

وقد بدات الشعوبيــة تعمل ، كمــا يظهر ، باسم المبادىء الاسلاميــة داعيــة الى مســاواة الموالي بالعرب ، وهذه خطــوة طبيعيــة في فترة سيادة عربية ، وحيــن لــم يكــن الموالي قوة خطيرة . وهناك فئة اخرى ، حافظت الى حــد كبيــر علــى آرائهــا المجوسية ، وغطتهــا بستار من الاسلام وراحت تبث في السر تعاليم تناقض مبادئه ، وهي في اساسهــا استمرار لحركات اجتماعيــة قامت في العصر الساساني وراحــت ترقب الفرص

الآن لتحقيق مآربهـا . وهؤلاء هم الغلاة ، وقـد كانت حركتهم سريـة مغلقـة ، وسنعود اليهـا .

ويبدو ان نشاط هذه الفئات تركز في العراق ، مركز ادارة الولايـات الشرقيـة وحيث توجـد جماعات كبيـرة من الموالي.

وقد ساعـد على نشاط اهل التسويـة دعوة الاسـلام للمساواة بيـن المسلميـن ، وتمسك بعض الاحـزاب العربيـة بفكرة التسويـة الاسلامية ، وهذا شأن الخوارج واكثر الاحزاب السياسيـة كمـا كـان شأن الفقهاء والاتقياء .

وكان العرب اول من رفع رايـة التسوية ، وتبعهم الموالي. وقد وجـد الموالي في هجوم الاحزاب العربيـة السياسية علـى الامويـيـن وحكمهم مـا يناسب وجهتهم ، فانضموا الى الثـورات التي قامت بهـا هذه الاحزاب تحقيقـا لاهدافهم . ورغم ذلـك فـان انضمامهم الى الاحزاب السياسيـة ذاتهـا كان محدودا قبل قيـام الدعوة العباسيـة ، وذلـك لاختـلاف الاهـداف الرئيسية .

موقف العرب من الموالـي

ومن المألوف ان تنسب حركات الموالي والاعاجم الـى ان السلطان العربي في الفترة الامويـة اضطهدهم واحتقرهم ، وانه ارهقهم بالضرائب وابعدهم عن الادارة ، وسار على سياسـة العصبيـة للعرب ونبذ من سواهم واحتقارهم اجتماعيا .

ويورد اصحاب هذا الراي ادلة على رأيهم ، منهـا رفض العرب تزويج بناتهم من الموالي ، وعدم ترحيبهم بفكرة الزواج من الاجنبيات ، ويشيرون الى نظرتهم الاجتماعية للموالي ، والـى حرمـان الموالي من الوظائف وفرض الجزية عليهم كمـا فعـل الحجاج في العراق ، والى عدم اعطائهم الاعطيـات فـي الجيش كالعـرب .

ومثل هذه الادلة والآراء تحتاج الى تمحيص ونقد ، فنحن نعرف ان الامويين استخدموا الموالي بكثرة في الدواوين ، وهي عماد الادارة المحلية واستخدموهم في الجباية والامور المالية على نطاق واسع ، وفتحوا المجالات العلمية امامهم . ولكنهم لم يسلموهم الرئاسة ، فالامارة وقيادة الجيوش اقتصرت على العرب ، ومع ذلك فان بعض القادة كطارق بن زياد ومقاتل بن حيان النبطي ، وبعض الامراء مثل يزيد بن ابي مسلم ، امير افريقيا ، كانوا من الموالي . اما مجال القضاء ، وهو ضرب آخر من الرئاسة يستند الى العلم والفقه ، فقد فتح امام الموالي حتى ان قاضي الكوفة في زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى . وبعد هذا فان احتفاظ العرب بالرئاسة يبدو طبيعيا في ظروفهم السياسية والفكرية في العصر الاموي .

اما من الناحية الاجتماعية ، فان العناية بالانساب كانت نظرة سائدة بين القبائل والنظرة القبلية واضحة في تزويج البنات ، وليست هذه قضية توجب السخط او الثورة ، مع ان كثيرا من العرب ولدوا لامهات اعجميات ، بل ان اثنين من الخلفاء الامويين المتأخرين ـ احدهما مروان الثاني ـ كانا من ابناء الاعجميات ، وهذه الظاهرة تدل على تحول في النظرة .

اما في الضرائب، فمن الثابت الآن ان بعض الولاة الامويين، كالحجاج ، فرض الجزية على الموالي نتيجة الازمة المالية في اواسط العصر الاموي ، وهذا يوضح فرض الخراج على العرب انفسهم . وكلا التدبيرين مخالف للعرف الاسلامي في حينه ، ولذا نقضت هذا التدابير ولم تتخذ قاعدة .

اما ما يذكر عن ارهاق الموالي بضرائب جديدة ، فقد تبين ان الامويين لم يتجاوزوا الضرائب المعروفة الموروثة ، كهدايا النوروز والمهرجان ، والضرائب على الصناعات والحرف، وهي ضرائب مالوفة من قبل . وليس لدينا ما يشعر بانهم زادوا في مقدار الضرائب مع ان تحديد الكمية تدبير اداري.

اما العطاء ، فقد شمل بعض الموالي في صدر الاسلام وذلك عند قلتهم وحاجة العرب اليهم في الفتوح ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة الى البلاد الجديدة وانتظام الجميع في الجيش لم يدع مجالا او ضرورة للموالي ضمن صفوفه ، فاقتصر العطاء على العرب . ولقد شاركت جماعات من الموالي في غزوات على الحدود الشرقية ، ولكنها كانت من القوات المتطوعة ولذا كانت تشارك في الغنائم فقط لانها لم تستند الى سجل ثابت او اساس دائم .

وما يقال عن احتقار العرب للموالي فيه نظر ، فالموالي لم يكونوا صنفا واحدا في الاساس ، فهناك اناس من السبي او من اسرى الحرب الذين استرقوا ثم اعتقوا ، وهؤلاء قلة بين الموالي . وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين اسيادهم ، ولا يرقون الى منزلتهم اجتماعيا . ولكن جل الموالي اناس دخلوا الاسلام ووجدوا ان المجتمع لا يزال يتألف من قبائل، وان دور القبائل كبير في الحياة الاجتماعية اذ لا كيان ولا منزلة اجتماعية خارج نطاقها ، فانتسب الموالي الى هذه القبائل افرادا او جماعات ، وهو انتساب ينطوي على الحلف يضمن للمولى مكانا في المخطط الاجتماعي ، فالولاء في هذه الحالة ولاء حلف لا ولاء عتق . وهم بهذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة ، كما انهم بدورهم يعززون مكانة احلافهم او يساعدونهم ماديا .

ان هذا الحلف فيه شيء من عدم التكافؤ الا انه لا ينطوي على مهانة او احتقار . الا ان العرب شعروا بتفوق في هذه الفترة لاسباب عدة . منها ان نجاحهم السريع اكسبهم ثقة بذاتهم واعتزازا بكيانهم ، واحسوا بانهم حملة رسالة انسانية قبلها غيرهم دون اكراه ، وبذلك قدموا خدمة كبرى للشعوب الاخرى. وفي هذا تأكيد لدورهم ، فمن فضلهم على الشعوب ان هدوهم الى ما فيه خير لهم ، وقبول الرسالة يوجب احلال العرب في

منزلة خاصة . ورافق هذا اعتزاز القبائل بانسابهم وربط المنزلة الاجتماعية بالنسب . وهذه وجهة قبلية لا تنسجم والروح العربية السمحاء التي تجلت في الاسلام . ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعودهم على الحياة الحضرية ، ضعفت الاسس القبلية واتجهت الادارة الى المركزية وازدادت سلطتها ، فلم تبق ضرورة لهذا الولاء لان السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وامرائه فأخذ هذا الولاء يتقلص بوضوح .

ومن ناحية مهنية نلاحظ ان الموالي لم يكونوا على درجة واحدة ، فهناك كتاب الدواوين وهؤلاء يتمتعون بمنزلة اجتماعية حسنة ، وهناك التجار من الموالي ولهم مكانة طيبة في المجتمع ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير . وبين الموالي الفلاحون واصحاب الحرف ، وهؤلاء في منزلة اجتماعية متواضعة . ولا يخفى ان القبائل تنظر الى الفلاحة والى الحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، ونظرتها الى هؤلاء الموالي تتجه الى مهنهم بالدرجة الاولى .

وترد في بعض المصادر اشارات اعتبرها البعض شواهد تشير الى درجة احتقار الموالي ، كقصة المولى الذي شتم عربيا امام الامير عبدالله بن عامر، فلم يكترث العربي وقال « هم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (١) ، او كقصة الاعرابي الذي سأل صاحبه : « أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ، فقال ارى ذلك ، قال توطأ والله رقابنا قبل ذلك » (٢) ، او كقصة الاعرابي الذي لم يظن ان اخاه الهجين يمكن ان يساويه في الميراث (٣) . فهذه القصص ترد في مصادرنا لتسجل حالات تجلب الانتباه لشذوذها عن المألوف ، لذا لا يمكن اعتبارها ممثلة للوضع . وعلينا ان

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ .

(٢) المبرد ـ الكامل (مطبعة الهلال ١٩٢٢) ج ٤ ص ٦١ .

(٣) عيون الاخبار ج ٢ ص ٦١، ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٢ ص ٤١٧ .

ننتبه لهــذه الظاهرة في مصادرنــا ، فنعرف الغريب الذي يذكر لغرابتــه ولا ننسى انه الشاذ .

وبعد كل هذا يجدر بنا ان نتذكــر ان ثورات الموالـــي والاعاجم وحركاتهم كانت في العصر العباسي اكثر واخطر منهـا في العصر الاموي ، وهي ان كانت تحت الوية عربية وباسم احزاب عربيــة في العصر الاموي فانهــا كشفت عــن حقيقتها في العصر العباسي ، وهذه ظاهرة يتعذر تفسيرهــا اذا اخذنــا بالـــراي القائل بان هدف الموالي كــان تحقيــق المساواة الاجتماعيـــة او الاشتراك في الادارة ، لان العباسيين حققوا ذلــك الى درجــة بعيــدة وواسعــة .

اسباب تــذمر الموالي

وهذا يدفعنا الى التسـاؤل عن ماهيــة المشكلة ، مشكلــة الموالي ، لصلتهــا الوثيقــة بالحركة الشعوبيــة ، ولنبــدا بطــرح الموضوع ـ هل كانت للموالي مشكلة عامة ؟ وهل كانت لهم وجهة واحدة او وجهات متماثلة ؟

انك ترى ان الموالي كانوا في اوضاع معاشية واجتماعيــة مختلفة ؛ بيــن كتّاب وتجار وفلاحين وصناع ، وترى بعد ذلك، ان الموالي موجودون في اراضي الخلافة الممتــدة عبر آسيـــــا وافريقيــا واوروبا ، ولكــن حركاتهم ظهرت قويــة في الجـــزء الشرقي من الدولة العربية الاسلامية ، وخاصـــة بين الفرس او المنتسبيــن اليهم ، هذا مع العلم ان موقف السلطان القائم واحد من الموالي . وهذا يشعــر بأن هنــاك جذورا ودوافع تخصهــم وتميز موقفهم عن غيرهم من الموالي والاعاجم .

وحين نحاول فحص هذه الدوافع نرى انهــا لا تتضح في الاوضاع الاعتياديــة ولا تنكشف الا حيــن يرتفع الغطاء في دور ازمة وغليان ، وهذا ما حصل اثناء الثورة العباسيــة وبعدهــا .

لقد وجدت الدعوة العباسية تأيدا اكيدا من العجم وبينهم الموالي . ولعل النظر الى وجهتها والى الجماعات التي استجابت لها يكشف الى حد كبير عن الدوافع التي كانت وراء ذلك .

ان جل المنضمين الى الدعوة العباسية كانوا من العامة ، وهناك مجموعة من الاشراف الفرس ايدتها ، خاصة في منطقة خراسان وبينهم الدهاقين نبلاء القرى والمناطق ، وقد عهد اليهم العرب بجباية الضرائب في قراهم او مناطقهم كما كانوا يفعلون في العصر الساساني ، ولذا كانت لهم امتيازات اجتماعية واقتصادية . وقد خسر الدهاقين امتيازاتهم نتيجة التنظيمات المالية التي وضعها نصر بن سيار في اواخر العصر الاموي ، ذلك لانه فرض الخراج على الارض مهما كان مالكها وابقى الجزية على اهل الذمة ، واحل هذا النظام محل الضريبة الواحدة التي كانت تفرض على الافراد ، كنوع من الجزية ،والتي كان الدهاقين واعوانهم يتخلصون منها فتقع على العامة . وهذا يعني ان جل الضريبة صار على الدهاقين لا العامة . فانقلب الدهاقين في السنين الاخيرة على الامويين وانضم كثير منهم الى الدعوة العباسية .

واستجاب البعض للدعوة العباسية لما راوا النبرة الفارسية القومية عند بعض الدعاة . ولا شك ان هؤلاء حاولوا اثارة الوعي القومي لدى الفرس ، كما فعل قحطبة بن شبيب الذي ذكر الخراسانيين بماضيهم ، وبأن الله ساط العرب عليهم ، ثم جار هؤلاء في الحكم « فسلطكم (الله) عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا اشد عقوبة لانكم طلبتموهم بالثأر » (١) .

الغلاة

ووجدت الدعوة العباسية تأيدا واسعا بين عامة الفرس

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٦ .

في خراسان ، وبين العامة جماعات من الغلاة والخرمية ، بل ان هؤلاء كونوا جزءا حيويا من انصار الدعوة . والغلاة جماعة احتفظت بالمفاهيم الاساسية للمجوسية وغلفتها بغلاف اسلامي رقيق ، وحاولت ان تصبغ حركتها صبغة علوية ما دامت الراية العلوية ترمز الى الثورة على الاوضاع ومقاومة السلطان القائم . ومع ان الائمة العلويين من الخطين الحسيني والحسني تبرؤوا منهم ورموهم بالمروق ، فانهم لم يرتدعوا وحاولوا ان يجدوا في الفرع الحنفي خاصة بعد وفاة محمد بن الحنفية رايتهم .

والغلاة فرق عديدة ، ونظرة الى مبادئهم تشير الى اصول مزدكية وزردشتية ومانوية . بعضهم ترجع قاعدته الى احدى هذه الديانات ، والبعض الآخر يجمع بين مزيج من آرائها ، وقد كانت الزردشتية هي الدين الرسمي في بلاد فارس الساسانية ، اما المانوية والمزدكية فقد كانت مضطهدة ولذا نظمت دعوتها في اطار من التكتم في الاراضي الساسانية . ومن المنتظر ان تستمر هذه الحركات بعد انهيار الساسانيين ، وان تتكيف تبعا للظروف الجديدة . وقد استمرت الحركة المانوية باسم الزندقة في المجتمع الاسلامي ، كما ان الخرمية تمثل تطور الحركة المزدكية بعد ظهور الاسلام ، وهم وان تستروا بالتظاهر بالاسلام احيانا فانهم لم تكن لهم صلة به . والغلاة يمثلون درجة واسعة من المزج بين المجوسية والاسلام ولا يمكن وضعهم في اطار الزندقة او الخرمية .

ومن الغلاة والخرمية ، بل ومن الزنادقة ، جماعات آزروا الدعوة العباسية خدمة لاغراضهم ، دينية او قومية ، ووجدوا في ترحيبها بهم وفي وعودها املا يقربهم من اهدافهم .

وقد نشط الغلاة منذ حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي ، ولم يكن لهم تنظيم واضح قبل ذلك ، وانضووا تحت رايته ، وبرز بينهم كيسان مدير شرطة المختار ، ولعل اسمهم « الكيسانية »

يتصل به . وكان المختار اول من حاول كسب موالي الكوفة (حمراء الكوفة) في حركته ، وقد ابدى تسامحا تجاه آرائهم الغريبة بل وشجعها ، وانضمت اليه منهم جموع كبيرة قدرها الدينوري بأربعين الفا . وقد وجدوا في دعوته الى مساواتهم بالعرب في العطاء واعتماده عليهم ما اثار طموحهم وحماستهم (١) وكان تصرف كيسان تجاه بعض اهل الكوفة ينطوي على حقد كبير (٢) ، وهذا ارعب اشراف الكوفة ونفر القبائل العربية وكان من اسباب انهيار حركته . ولكن حركة الغلو استمرت سرا ووجدت مجالا في الدعوة العباسية ، وذلك ان الهاشمية وهم فرع من الكيسانية، تابعوا ابا هاشم بن محمد بن الحنفية كونوا اول مجموعة من اتباع الدعوة ولعبوا دورا يذكر فيها .

خرمية ، مانوية ، كتساب

اما الخرمية، فقد دخلوا الدعوة العباسية مبدئيا بتأثير داعية من الموالي اسمه خداش (حوالي ١١٦ هـ)، وبعد فترة انتكاس وقتية انضموا اليها باعداد اكبر بتأثير ابي مسلم الخراساني وكان لهم نشاط كبير في بلاد فارس في حياة ابي مسلم وبعده .

---

(١) يقول الدينوري ان المختار « قرب ابناء العجم وفرض لهم ولاولادهم الاعطيات وقرب مجالسهم وباعد العرب واقصاها وحرمهم فغضبوا لذلك ». الاخبار الطوال (باغناء جرجاس) ص ٣٠٦ – ٧ .

(٢) امر المختار ابا عمرة (كيسان) ان يجمع بعض الفعلة بالمعاول ويتتبع دور من خرج الى قتال الحسين فيهدمها : « فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار في لحظة فمن خرج اليه منهم قتاه حتى هدم دورا كثيرة وقتل اناسا كثيرا وجعل يطلب ويستقصي فمن ظفر به قتله وجعل ماله وعطاءه لرجل من ابناء العجم الذين كانوا معه ». الدينوري ـ الاخبار الطوال ص ٣٠٠ .

ونحن لا نحس بنشاط يذكر للمانوية الا بعد مطلع القـرن الثاني للهجرة، فقد اعدم هشام بن عبد الملك الجعد بن درهـم لزندقته، وهو من طلائع نشاط المانوية باسم الزندقة. ولكن حركة الزندقة لم تكن مفهومة بعد، ولعل الجو لم يتسع لهم كما يريدون حتى جاءت ايام الدفء العباسية فارتفع الستار عن نشاط واسع للزنادقة، وما هو الا استمرار نشاطهم في ظروف اكثر ملاءمـة لهم لانك ترى عدداً منهم ممن عاصر الدولتين الاموية والعباسية.

ومما ساعد على نشاط المانوية فـي اواخر العصر الاموي استخدام بعضهم كتابا في الدواوين بدل الزردشتية في العراق.

وهنا تجدر الاشارة الى الكتّاب لدورهم الهام في الحركـة الشعوبية في العصر العباسي الاول. كان الكتاب في دواويـن الخراج والنفقات في العراق بعد الفتح من الزردشتية، واستمـر هؤلاء يحتكرون الكتابة ما دامت بالفارسيةحتى تم تعريب الدواوين في العراق في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي. وقد ادى التعريب الى نتيجتين مهمتين : الاولى، استعمال العربية والتأكيد علـى اتقانها من قبل الكتاب، والثانية دخول جل هؤلاء الكتاب تدريجيا في الاسلام وان بقيت قلة منهم تحتفظ بدينها. ويبدو انالامويين منذ ايام هشام بن عبد الملك وولاية خالد القسري علـى العراق استخدموا بعض المانوية بدل الزردشتية في الدواوين وليسـت ظروف ذلك واضحة، فقد يكون ناشئا عن التحول الاداري او عن نشاط المانوية ثقافيا، ويبدو ان الاستعانة بالمانوية في الدواوين وسع المجال امامهم وركز اهميتهم. وبقي الكتاب يعتمدون فـي جانب مهم من ثقافتهم على التقاليد والتراث الفكري الفارسـي. وكان بعضهم ينظر بقلق وشك الى توسع الثقافة العربية والـى دورها الحضاري، كما سنرى . ولعل هذا الوضع يساعد علـى فهم دورهم في العصر العباسي .

بدايات الشعوبيــة

(العصر الاموي)

لعل هذا التمهيد كان ضروريا لفهم طبيعة الحركة الشعوبية ونطاقها كما نراها في العصر العباسي . كما انه يشعر بأن طلائــع الحركة في العصر العباسي ظهرت بعد فترة تمهيدية فـــي العصر الامــوي .

لقد بان نشاط الشعوبية والزنادقة في ايام المهــدي ولكن المعلومات عن الجيل الاول من هؤلاء تشير الى وجودهم منذ زمــن المنصور والى ان بعضهم من المخضرمين الذي عاشوا في اواخــر العصر الاموي واوائل العصر العباسي من امثال عمارة بن حمــزة وخلف الاحمر ومطيع بن أياس وابن المقفع، كما ان طلائع النزعات الفارسية في العصر الاموي تتمثل في شعوبي كاسماعيل بن يسار وفي زنديق كالجعد بن درهم.

ولكن ملامح الشعوبية لا تتضح في العصر الاموي لقلـــة المعلومات من جهة ولطبيعة الجو السياسي آنئذ، فهي تختفي وراء الدعوة للمساواة باسم مبادىء الاسلام. وكانت حركة الاعاجــم

بين صفوف الموالي، ولم يقم غيرهم بحركة ظاهرة. وقد تركزت في العراق حتى اواخر العصر الاموي، وكان التأكيد على فكرة التسوية الاسلامية يزداد قوة بين المسلمين بتغلغل مبادىء الاسلام وتوسع تياره، وفي القرآن والحديث ما يعززها .

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ـ الاية . و«لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى» . وذهبت بعض الاحزاب، كالخوارج، الى جواز امامة غير العربي. ولكن هذه النظرة تلونت لدى بعض الموالي بتذكر الامجاد القديمة. قال ابن قتيبة : «وبلغني ان رجلا من العجم، احتج بقول الله (تعالى) «يا ايها الناس . . الاية» وقال : الشعوب من العجم والقبائل من العرب، والمقدم افضل من المؤخر، وقد كنت ارى اهل التسوية يحتجون بذلك (١).» ولا يخفى ان المعنى ينطوي على حضارة الشعوب ووحدتها وعلى بداوة القبائل وانقسامها .

اسماعيل بن يسار

ومن اوائل من اعلن شعوبيته اسماعيل بن يسار في الفترة الاموية الاخيرة، وانت ترى في سلوكه ملامح الشعوبية ووضعهم في تلك الفترة. فهو يتقرب من العرب اول الامر، فيتظاهر بالولاء للزبيريين حين خرجوا على الامويين ، ثم يتقرب من هؤلاء ويدعي المروانية ويتظاهر بها، ولا يكتفي بذلك بل يدعي انه شاعر مضحك زيادة في التستر (٢) ثم تنكشف شعوبيته حين ينظم مفتخرا

---

(١) ابن قتيبة ـ كتاب العرب، رسائل البلغاء .

(٢) جاء في الاغاني «دخل اسماعيل بن يسار على عبد الملك بن مروان ، لما افضى الامر اليه بعد مقتل عبدالله بن الزبير فسلم ووقف موقف المنشد، واستاذن في الانشاد، فقال له عبدالملك: والان يا ابن يسار، انما انت امرؤ=

بالفرس ، ويقول :

رب خال متوج لي وعم ... ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمي الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الانساب
فاتركي الفخر يا امام علينا ... واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي ان جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسون ... سفاها بناتكم في التراب (١)

ثم اعلن بجلاء عن نزعته الشعوبية في قصيدة انشدها امام هشام بن عبد الملك يفخر فيها بالعجم جاء فيها :

من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر او لتعظيم
اسد الكتائب يوم الروع ان زحفوا ... وهم اذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذي سابغة ... مشي الضراغمة الاسد اللهاميم
هناك ان تسألي تنبي بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم (٢)

= زبيري،فباي لسان تنشد؟فقال له : يا امير المؤمنين،انا اصغر شانا من ذلك، وقد صفحت عن اعظم جرما واكثر غناء لاعدائك مني، وانما انا شاعر مضحك». فتبسم عبد الملك ج ٤ ص ٤٢٣ .

وروي انه استاذن مرة على الغمر بن يزيد فحجبه ساعة ثم اذن له فدخل وهو يبكي، فساله الغمر عن سبب بكائه، فقال: انا على مروانيتي ومروانية ابي احجب عنك. وحين خرج ساله احد الحاضرين عن هذه المروانية فقال :«امراته طالق ان لم تكن امه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وان لم يكن ابوه حضره الموت، فقيل له : قل لا اله الا الله، فقال : لعن الله مروان» (الاغاني ج٤ ص ٤١٠) ومن هذا ترى مدى التستر وشدة الحقد لديه .

(١) ن. م. ج ٤ ص ٤٢٧ . (٢) ن. م. ج ٤ ص ٤٢٢

وقد ادت هذه النزعة الى التنكر له ومطاردته. جاء في الاغاني : «وكان ابن يسار مبتلي بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا» .

وترى الجعد بن درهم على صلة بالامويين ، يؤدب مروان ابن محمد ثم تظهر زندقته وتنكشف وجهته المضادة للاسلام فيلقى حتفه .

الزنادقة

وهناك جماعة ممن يتهم بالشعوبية او الزندقة، من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. ومن هؤلاء الحمادون الثلاثة، حماد الراوية وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان. وتكثر الروايات في اتهامهم بالزندقة وبالتهتك والخلاعة (١) .

وقد حمل السيد المرتضى على حماد الراوية فقال «واما حماد الراوية فكان منسلخا من الدين، زاريا على اهله، مدمنا لشرب الخمور وارتكاب الفجور» (٢). وقد لعب دورا كبيرا في افساد الشعر العربي فهو «لا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الافاق فتختلط اخبار القدماء ولا يتميز الصحيح عنها الا عند عالم ناقد، وأين ذلك» (٣). وكان احيانا يأخذ المنحول من الشعر من امثاله، فيرويه على انه الصحيح. قال خلف الاحمر «كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من اشعار العرب واعطيه المنحول فيقبل ذلك مني ويدخله في

---

(١) الاغاني ج ٤ ص ٧٦، وانظر الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٤٤٣ وما بعدها والامالي للسيد المرتضى ج ١ ص ١٢٨، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الامالي ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) الاغاني ج ٤ ص ٨٩ وانظر ص ٩٠ .

اشعارها» (١). هذا مع ان خلف الاحمر نفسه عرف بتزييف الشعر ، فقد « كان شاعرا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم» (٢)وقد علق السيد المرتضى على عمل حماد بقوله :« وهذا الفعل منه ان لم يكن دالا على الالحاد فهو فسق وتهاون وكذب في الرواية » (٣) .

وكان هؤلاء يتسترون على زملائهم في الزندقة، فهذا حماد عجرد يجعل يونس بن ابي فروة مخدوعا ببعض المتهمين في دينهم، في حين انه من الزنادقة، فيملق الجاحظ قائلا «ويونس بن ابي فروة الذي زعم حماد عجرد انه غر نفسه بهؤلاء (الزنادقة) كان اشهر بهذا الراي منهم». ويونس هذا شعوبي كتب كتابا للملك الروم « في مثالب العرب وغيوب الاسلام بزعمه » (٤) .

وكان بعض الشعوبية في خدمة ابن معاوية الذي ثار في اواخر ايام الامويين وكون كيانا له في غربي بلاد فارس. ومن هؤلاء عمارة بن حمزة،ويرمى بالزندقة. وكان من ندمائه المقربين مطيع ابن اياس« وكان زنديقا»، والبقلي «وانما سمي بذلك لانه كان يقول الانسان كالبقلة فاذا مات لم يرجع» اي انه كان ينفي البعث والحساب (٥) .

واذا كان بعضهم يكشف عن زندقة او شعوبية، فان اخرين كانوا اكثر تسترا واعمق غورا. وقد يكون ابن المقفع من هؤلاء. فقد نقل الكثير من تراث الفرس القديم الى العربية مثل« خداينامه»

---

(١) الاغاني ج ٦ ص ٩٢ .

(٢) ابن النديم ص ٧٤ .

(٣) الامالي ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) الجاحظ ـ الحيوان ج ٤ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩. وهجا حماد عمارة بن حربية فعلق الجاحظ «وحماد هذا اشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الابيات» الحيوان ج ٤ ص ٤٤٤ .

(٥) الاغاني ج ١٢ ـ دار الكتب ـ ص ٢٣٠ .

او سير ملوك الفرس، وكتاب «آيين نامه» او كتاب المراسيم والتقاليد، و «كتاب التاج» في سيرة انو شروان، وان كان في بعض هذه فائدة فان «كتاب مزدك» يسترعي الانتباه ولعله سيرة مؤسس المزدكية. وقد ترجم كِتاب كليلة ودمنة، وله غرض من ذلك عبر عنه المؤرخ العالم البيروني، اذ قال «وبودي ان كنت اتمكن من ترجمة كتاب «نج تنتر»، وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فانه تردد بين الفارسية والهندية، ثم العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم اياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة الى مذهب المنانية (اي المانوية)، وان كان متهما فيما نراه لم يخل عن مثله فيما نقل» (١) . وقد كتب ابن المقفع كتابا يبشر فيه بالمانوية، وينقد المفاهيم الاسلامية ويشكك فيها بطريقة تأويلية افتتحه بعبارة «باسم النور الرحمن الرحيم» وصلتنا مقتطفات منه ضمن الرد الذي كتبه القاسم بن ابراهيم»(٢) ويشير المسعودي الى الدور الرئيسي الذي قام به ابن المقفع في نشر الزندقة بنقل مؤلفات ماني وابن ديصان ومرقيون من الفارسية الى العربية (٣) . ويتضح اثر ابن المقفع في قول المهدي « ما وجدت كتاب زندقة قط الا واصله ابن المقفع (٤) » .

الغـلاة

وفي اواخر الفترة الاموية نرى ازدياد نشاط الغلاة وهؤلاء

---

(١) البيروني – تحقيق ما للهند من مقولة – باعتناء سخاو – ص ٧٦ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع لقاسم بن ابراهيم ، باعتناء جويدي روما ١٩٢٧، وانظر احمد افشار شيرازي: ماني ودين او (طهران ١٣٣٥) ص ٧٧ – ٨٣ .

(٣) المسعودي – مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٢ – ٣ . وقد وردت روايات تنسبه الى الزندقة. انظر الاغاني (ط. الساسي) ج ١٢ ص ٧٧، الثعالبي – ثمار القلوب ص ١٣٨ – ٩ .

(٤) الامالي ج ١ ص ٣١٤ – ٥ .

كانوا يتمسكون بتراثهم الديني المجوسي،ويتسترون باسم الاسلام ولا يكشفون الا طرفا من آرائهم المغالية في الامامة، ولكن بعضهم يكشف عن هويته كالمغيرية والمنصورية، بل واخذ يرتكب بعض اعمال العنف والارهاب كالخناقين، وسنعود اليهم. وكان للغلاة دور في الدعوة العباسية، وقد انتبه البعض الى دورهم الخطر والى وجهتهم المعادية للعروبة والاسلام حين كبر دورهم في الدعوة. فهذا نصر بن سيار يحذر القبائل العربية في خراسان من اتباع الدعوة العباسية ونواياهم ويقول:

ابلغ ربيعة في مرو واخوتها
فليغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم
كأن اهل الحجا عن رايكم غيب
وتتركون عدوا قد اظلكم
ممن تأشب لا دين ولا حسب
قوما يدينون دينا ما سمعت به
عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلا عن اصل دينهم
فان دينهم ان تقتل العرب (١)

هنا ترى ادراك الصلة بين العروبة والاسلام، وبأن هذه الجمهرة من العامة التي لا تدين بدين كتابي ولا صلة لها بالاسلام تريد ابادة العرب.

ومع ان الغلاة والخرمية انضموا للدعوة وقبلوا امامة عباسي، الا ان وجهتهم تنكشف اثر الثورة العباسية فتبدو فارسية، اذ وجد كثيرون منهم في ابي مسلم الخراساني المنقذ المنتظر ونقلوا الامامة اليه والى رجال من الفرس كما فعل (الرزامية) و (المسلمية).

---

(١) الدينوري ـ الاخبار الطوال ص ٣٦٠.

تطور الشعوبية

آثار الدعوة العباسية

وكان انتصار العباسيين ووصولهم الى الحكم نتيجة دعوة وثورة. دعوة بشرت ببعض المبادىء والاتجاهات، وثورة غيرت بعض الاوضاع. ويهمنا بصورة خاصة موقفها من العرب ومن الموالي . لقد نادت الدعوة بالتسوية بين العرب والموالي في المجتمع. واعلن العباسيون ان مجيئهم للحكم بداية عصر جديد من العدل والرفاه الاجتماعي، وساروا خطوة حين اشركوا الفرس في السلطة، في الجيش والادارة، بل واقاموا اساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب، وكان في خطة تعيين الوزير من الموالي الى جانب الخليفة، وهو عربي، رمز هذه المشاركة في السلطة. وينتظر ان يرضي هذا الاتجاه اولئك الذين يدعون الى المساواة بين العرب والموالي ان كانت دعوتهم صادرة عن ايمان بمبادىء الاسلام .

وكانت للثورة العباسية اثار اخرى، فقد اتمت تطورات كانت قد بدات في العصر الاموي حين ضربت المفاهيم والتنظيمات القبلية بقوة، وحين اعادت تنظيم الادارة والجيش على اسس

جديدة، وهي لم تقصد ضرب العرب، بل سرعان ما اكد أن السلطان لا يزال في اساسه عربيا، ولكن هذه التطورات اثرت على النظرة الى العرب وعلى موقف الشعوب الاخرى منها .

لقد كانت الادارة الاموية تستند في اختيار رؤساء الادارة والجيش الى المنزلة الاجتماعية جنب المؤهلات الاخرى وتختارهم من الاشراف العرب. ولهذه الجماعة قيمها ومفاهيمها العربية. ومع ان الامويين اتجهوا الى المركزية في الادارة وخاصة بعد انتهاء القرن الاول الهجري وخففوا من مساوىء العصبية القبلية، فان ادارتهم بقيت تحتفظ بطابعها العربي العام وبمفاهيمها الاجتماعية. اما العباسيون فقد اعتبروا الولاء لهم اساس كل شيء، وخلقوا بيروقراطية من الموظفين، وجعلوا من الكتّاب قاعدتها الاساسية. وهذا بدوره احل مفاهيم جديدة في الادارة وطرقها ووسع جماعة الكتّاب واعطاهم اهمية في الحياة العامة لم تكن لهم من قبل، ولا يخفى ان جل هؤلاء من الموالي، وانهم كفئة ينظرون نظرة تمجيد الى التراث الثقافي الساساني ويرجعون اليه في الكثير من قيمهم ومفاهيمهم (١) .

ومن جهة اخرى اعتمد العرب حتى الان على القبائل العربية في تكوين الجيش، وبذلك حافظوا على الفكرة الاسلامية الاولى التي تعتبر الجهاد واجب الامة، وترى في افرادها القادرين على حمل السلاح جنودا او قوات احتياطية. وهي ان اقتصرت في التطبيق على العرب بالدرجة الاولى، الا انه كان هناك متطوعة من الموالي، والمهم ان الدولة لم تعتمد على الجنود المرتزقة. ومن المنتظر ان تكون الوحدات الاجتماعية، وهي القبائل او البطون، اساس التنظيم العسكري في تكوين العرافات وفي العطاء، ولكن الامة تبقى قاعدة للسلطان، وهي في الوقت ذاته صاحبة السلطة.

---

(١) انظر راي الاستاذ هـ. ا. ر. جب في مقاله « المعنى الاجتماعي للشعوبية » (بالانكليزية) .

فلما جاء العباسيون تخلوا عن هذه الوجهة وكونوا قوات نظامية مهنتها القتال وتتألف من الفرس، وعامتهم من خراسان، ومن العرب. وهذا اكد المشاركة في السلطة واعطى الخراسانيين اهمية كبيرة، خاصة اذا تذكرنا ان الجيش الذي تكون خلال الثورة العباسية كان جله من اهل خراسان (١) .

الحركات الثورية

وكان للدعوة العباسية اثرها في تنشيط الوعي القومي بين الفرس، وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية الفارسية، وخاصة الخرمية والمانوية بل وبين الزردشتية ايضا. ومن المتعذر الفصل بين النشاط الديني والسياسي، فالحركات الزردشتية الجديدة كحركة بها فريد (١٣٢ هـ) وحركة استاذ سنيز (١٥٠هـ) حاولت تجديد الزردشتيةبتطعيمها ببعض الاراء الاسلامية، وارادت ان تمكن الزردشتية من الوقوف في وجه التيار الاسلامي الجارف، وبشرت بظهور المنقذ الذي بشر به زردشت وبعودة الملك اليهم بعد ان اخذه العرب .

وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشرت دعوتها في بلاد فارس، وكانت تمثل في الحقل الاجتماعي اشتراكية مزدك، وفي الحقل الديني والسياسي ضرب الاسلام واعادة السلطان الى العجم. وقد تستر الخرمية احيانا، وحاولوا ان يتخذوا من بعض مبادىء الغلو سبيلا للظهور بمظهر اسلامي، فنقلوا الامامة من العباسيين الى ابي مسلم الخراساني، وهذا يبدو في ثورة اسحق الترك والمقنع مثلا. ويبدو لي ان الوعي الفارسي وجد في ابي مسلم رمز توثبه فاعتبره بعضهم خليفة زردشت، واعتبره اخرون المنقذ الذي حل فيه جزء الهي كما فعل المبيضة .

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٩٤ .

كما اننا نلاحظ ان ابرز فرق الغلاة وهم (الراوندية) او الغلاة الذين اعتقدوا بحلول جزء الهي في العباسيين كانوا يقدسون ابا مسلم وبعضهم كالرزامية اعتقدوا بحلول جزء الهي فيه وانه الامام، وشاركهم في ذلك (المسلمية) الذين اعتقدوا بانه ما مات وسيعود ليملأ الارض عدلا ويعيد السلطة اليهم. وهو موقف يبين كيف انكشف الغطاء واصبح الحزب الذي دعا لامامة العباسيين يتخذ ذلك سبيلا لتحقيق هدف اخر وهو نقض السلطان العربي والاسلامي والرجوع الى الفارسية .

ونظرة شاملة الى العلاقة بين العرب والشعوب الاخرى في اطار الخلافة العباسية تظهر كثرة الثورات في بلاد فارس في العصر العباسي الاول، ونشاط الشعوبية والزندقة في العراق مقر الخلافة،ثم في بلاد فاوس. ونشهد بصورة عامة صراعا بين الشعوب الاخرى خاصة الفرس وبين العرب من جهة، وبين المجوسية والاسلام من جهة اخرى، وهو صراع يسير في خطين متوازيين .

وكان بعضه صراعا مسلحا ضد الكيان القائم في سلسلة ثورات بين فترتي المنصور والمعتصم، وبعضه سلميا فكريا كما في حركة الشعوبية والزندقة. ويبدو هذا الصراع متشعبا ومتشابكا، ولذا لزم تمييز خيوطه لنعرف محل الشعوبية والزندقة منه .

نلاحظ مبدئيا ان الثورات التي قامت في بلاد فارس في هذه الفترة كانت ثورات غير اسلامية مهما تستر اصحابها ومهما صبغوا دعوتهم. فقد كانت ثورات خرمية (مزدكية جديدة) او زردشتية في مبادئها واهدافها، كما انها انتشرت في المناطق التي تكثر فيها الجماعات غير المسلمة. وكانت مراكزها على اطراف بلاد فارس، في خراسان وما وراء النهر (١) واذربيجان (٢)، وفي جنوب بحر قزوين (طبرستان) (٣). واذ كانت هذه الثورات

قد انتشرت الى اجزاء اخرى من بلاد فارس فان معاقلها الرئيسة كانت على الاطراف. ورغم قلة المعلومات المتوافرة عن أطر هذه الثورات، فاننا نلاحظ أن قادتها كانوا من العامة ، وقليل منهم من الدهاقين، وأن جل انصارها من الفلاحين (٤) .

اما برامجها فهي سياسية في دعوتها الى ازالة السلطان العربي واحياء مجد الفرس (٥)،دينية في دعوتها الى المجوسية ومحاربتها الاسلام،(٦) اقتصادية في دعوتها لاوضاع افضل.ومن

---

(١) مثل ثورات سنباذ واسحاق الترك والمقنع .

(٢) مثل ثورة بابك الخرمي. انظر الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ٨٦ـ٨٨. وص ١١٥ ـ ١١٩ وص ٢٣٠ ـ ٢٣٩ .

(٣) مثل ثورة المازيار. ن. م. ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

(٤) يقول المسعودي عن اتباع سنباذ «واكثر هؤلاء في القرى والضياع» مروج الذهب ج٣ ص ٢٢٠. ويقول البغدادي عن اتباع المقنع « واتباعه اليوم في جبال ايلاق (ما وراء النهر) اكرة اهلها». الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ـ٥. وكان جل انصار المازيار من الفلاحين. انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٥) بشر سنباذ بنهاية السلطان العربي واعلن عن عزمه على الذهاب الى الحجاز وهدم الكعبة. (الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ٨٦) . ويرى المقريزي وابن الجوزي ان هدف الثورات الفارسية المجوسية في العصر العباسي الاول اعادة مجد بلاد فارس. المقريزي ـ الخطط (القاهرة ١٣٢٦) ج ٤ ص ١٩٠ ـ ١، ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٥ ص ١١٠ ـ ١١١. وجاء في الوصية المنسوبة الى جاويدان سلف بابك الخرمي ان بابك « يملك الارض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعز به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم » الفهرست لابن النديم ص ٤٨٢ .

(٦) ادعى اسحاق الترك «انه نبي انفذه زرادشت» . «وانه يخرج حتى يقيم الدين لهم» الفهرست لابن النديم ص ٤٨٣. ويقول البيروني عن المقنع انه «شرع لهم (اي لاتباعه) جميع ما اتى به مزدك » الاثار الباقية ص٢١١ .=

المتعذر احيانا فصل الجانب الاقتصادي عن السياسي في برامجها ، فحين دعت الخرمية الى اخذ الاراضي من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين، لاحظت ان هؤلاء من العرب او من الدهاقين وابناء القواد و«هواهم مع المسودة» اي العباسيين (١) .

وليس هذا مجال تناول تفاصيل هذه الثورات، فلهذا مجال اخر (٢). ولكن فشلها يشعر بقوة السلطان القائم من جهة وبعدم قوة المجوسية الى الدرجة الكافية في بلاد فارس. ولكنها مع ذلك كان لها اثرها في تركيز الاتجاهات الانفصالية في تلك البلاد. وعلى كل فان هذه الثورات خارج نطاق الحركة الشعوبية .

= وقالت زوجة جاويدان سلف بابك الخرمي «ان بابك سوف يرد المزدكية» المسعودي ج ٤ ص ٩ - ويرى المقريزي ان حركة بابك، والثورات الفارسية الدينية السابقة كانت مدفوعة بالحقد على الاسلام وانها ترمي الى «كيد الاسلام بالمحاربة» الخطط ج ١ ص ١٩٠-١٩١. ويقول المسعودي ان المازيار «اقر على الافشين انه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس» المسعودي ج ٤ ص ١٦. وجاء في رسالة من اخي بابك الخرمي الى اخي المازيار، بيان لكيفية القضاء على العرب حتى «يعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم» الطبري ج ١٠ ص ٣٦٧، وانظر المسعودي - التنبيه والاشراف القاهرة ١٩٣٨ ص ٣٠٦ .

(١) انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٢) انظر عن هذه الثورات :

Sadighi - Les Mouvements Religieux Iraniens , Paris 1938 .

E.G. Browne-A Literary History of Persia Vol , 1 .

والدوري - العصر العباسي الاول، بغداد ١٩٤٥ .

شعوبية اشراف العجـم

لم يقم المسلمون الفرس بثورات مسلحة في العصر العباسي الاول. وهذا لا يعني ان الوعي الفارسي كان ضعيفا بينهم او ان تحقيق المساواة في الحياة العامة ارضى رغباتهم المعلنـة باسـم مبادىء الاسلام، بل ان الدلائل تشير الى عكس ذلك، لقـد كـان منهم الوزراء والكتاب، وكان منهم رجال الادارة والجيش، وهؤلاء يمثلونهم في الحياة العامة.

ونحن نعرف ان تاريخ الوزراء في العصر العباسي الاول هو سلسلة احتكاك وتصادم بين الخلفاء وبين الوزراء، ولـم يكـن الوزراء جميعـا من الفرس، وان كانوا جميعا ينتسبون اليهم كأبي ايوب الموريانى الخوزي. لقد كان الخلفاء يمثلون الثقافة العربيـة الاسلامية الشاملة، وكانوا يمثلون السلطان العربي الاسلامي بنظر غير العرب، وهم رمز الكيان القائم . امـا الوزراء فنجد بينهم من اتخذ وجهة فارسية، ومن كان يحلم باعادة السلطة الى الفـرس، وهذا ينطبق على بعض القادة. وتظهر هذه الناحية فـي الصراع السياسي الخفي بين العرب والفرس على السلطة في العاصمـة، ولعل هذا من اثار الثنائية السياسية التي اوجدها العباسيـون والتي سرعان ما تبين انها ثنائية قلقة ليس لها من قوى الشد مـا

يكفي لتكوين كيان سياسي متآلف متماسك، فلم تثبت لفترة من الزمن الا بجهود الخلفاء انفسهم .

البرامكة

ولعل وضع الوزراء الفرس ودورهم في الحياة العامة يبدو جليا بين فترة الرشيد والمأمون، ولم تكن الفترة السابقة لهذه الا فترة تمهيد. فالبرامكة الذين تربعوا على دست الوزارة سبعة عشر عاما تركوا اثارا بعيدة. فقد حاولوا تقريب الفرس في الادارة لحد كبير، وربما ذهبوا بعيدا في ذلك مما ولد رد فعل قويا ضدهم. فهذا يحيى البرمكي يقرب بني سهل وهم مجوس آنئذ، ويعرف المأمون بالفضل بن سهل ويطلب منه تقريبه، ويقول عنه «في كل اربعين سنة يحدث رجل، يجدد الله به دولة، وانت (يخاطب الفضل) عندي منهم» (١) .

وكأنه بهذا يمهد للفضل بن سهل ليكون خليفته في الوزارة وربما أمل منه اكثر من ذلك. والبرامكة بموقفهم هذا هددوا فكرة التماسك والتعاون الاداري بين الفرس والعرب بأن كونوا رد فعل لدى العرب وولدوا الاعتقاد لديهم بأنهم يريدون اضطهادهم، وليست قصة يزيد بن مزيد الشيباني الا مثلا على ذلك .

وجهد البرامكة ليوسعوا طبقة الكتاب وليؤكدوا اهميتها، وهؤلاء اعتبروا انفسهم حملة التراث الحضاري الفارسي ورسل الثقافة الفارسية. ولذا وقف الكتاب يسندون البرامكة ويتحمسون لهم. وحاول البرامكة بالبذل والعطاء تنشيط حركة الترجمة عن الفهلوية الى العربية، في الادب والتاريخ، وتبنوا عناصر متطرفة في فارسيتها كسهل بن هارون الذي كان من اعلام الشعوبية ومن المندفعين في كره العرب. وكان للبرامكة دور

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٣٢ .

عملي واضح في العهد للمأمون بعد العهد للأمين بثماني سنوات، وبذلك اعطوا للعناصر الفارسية في العاصمة رمزا يعملون باسمه بحجة كونه «ابن اختهم» لتحقيق شيء من آمالهم الفارسية.

وانتبه الرشيد بعد امد الى دور البرامكة، فتخلص منهم، وكان ذلك صدمة حادة للطموح الفارسي لا تزال آثارها قوية في الاثار الادبية والتاريخية، وفي تمجيد (الكتاب) للبرامكة وفي مهاجمة الرشيد والدولة بعدهم، بل وذهب بعضهم حتى الى محاولة تلطيخ الاسرة العباسية في قصة متهافتة نسجوها حول العباسة .

بنو سهل

ويبدو ان احداث عصر الرشيد ادت الى مصائب في الفترة التالية. جاء الفضل بن سهل اكثر اندفاعا وفارسية من البرامكة، فقد اتخذ من قضية المأمون سبيلا لتحقيق وجهاته الفارسية. بدأ بأن نصح الامير باسم السلامة، بترك بغداد والذهاب الى مرو بصحبة ابيه الرشيد في حملته الاخيرة ضد رافع بن الليث، والبقاء هناك بين اخواله كما قال، ليبعده عن بغداد، وقام بدور حيوي في الخلاف بين الاخوين، بل وجعل المأمون يتخذ مرو عاصمة الخلافة بعد انتصاره على الامين، وولي على بغداد واليا فارسيا هو اخوه الحسن بن سهل،ولم تكن العاصمة مجرد محل للاقامة بل انها تعبر عن وجهة الدولة وعن خطوطها الاساسية . كانت بغداد عاصمة اسلامية وهي في منطقة حيوية بين مجال الثقافة العربية ومجال الثقافة الفارسية. وبغداد تعبر عن تلك الثنوية في الحياة العامة، مشاركة العرب والفرس .

اما مرو فكانت قلب خراسان، وهي مركز الحيوية الفارسية في هذه الفترة، والانتقال اليها يمثل تحولا خطيرا في اتجاه السياسة وجهة فارسية واضحة. وقد اعتبر اهل بغداد البقاء

فيها تحولا للسلطة صوب المجوسية (١) .

وقد ادرك بعض العرب ان الفضل بن سهل يعمل ليصير الملك « كسرويا » (٢) . وكان الفضل بن سهل يقدر أن وجهته لا تلتقي مع الوجهة العباسية،وانها وجهة فارسية قوية (٣) . ولذا احاط المأمون بنطاق حديدي فحجب عنه الاخبار ، وفسر الاضطرابات الناجمة عن خطته ، كثورة بغداد ، تفسيرات تخالف حقيقتها، وحاول ان يحكم الامبراطورية من مرو بمعونة اخيه الحسن بن سهل ، وان يجعل من المامون رمزا لا اكثر ، ووجدت الاقلام الشعوبية فرصتها في فترة سلطته لتركيز هجومها على العرب (٤) .

وجاءت النذر الى المأمون من بعض القادة العرب . هذا هرثمة بن اعين يحاول تبصير المأمون بالوضع وبحقيقة وجهة الفضل وبما يدبره عليه ، فلقي حتفه غيلة بدسيسة الفضل ابن سهل (٥). وهذا خازم بن خزيمة يحذر المأمون من الفضل

---

(١) ثار البغداديون ضد سياسة الفضل بن سهل قائلين:«وقد خشينا ان تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس » . اليعقوبي (ط . النجف) ج ٣ ص ١٧٩ .

(٢) انظر الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٣١٢ .

(٣) يروي اليعقوبي ان الفضل بن سهل كان يتمثل بالابيات التالية :

لئن نجوت او نجت ركائبي   من غالب ومن لفيف غالب

انــي لنجــاء من الكرائــب

ويقصد بغالب قريشا كما اوضح اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج٣ ص ١٨١.

(٤) انظر الفهرست .

(٥) انظر تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٨، الجهشياري ـ الوزراء ص ٣١٧ . ويقول الطبري ان هرثمة «اراد ان يعرف المامون ما يدبر عليه الفضل بن سهل ويكتم عنه من الاخبار والا يدعه حتى يرده الى بغداد، ليتوسط لسلطانه ويشرف على اطرافه» الطبري ج ٣ ص ٢٣٦ .

ابن سهل ويقول «الله الله يا امير المؤمنين، لا يخدعنك عن دينك وملكك » (١) .

وسرى التذمر من السياسة الفارسية الى الناس ، وادركت الجماعات العربية والمؤيدة في بغداد ان خطوات الفضل بن سهل تعني سلبها السلطة ، وثارت على حاكمها الفارسي وعلى دسائس الفضل بن سهل،وبايعت خليفة جديدا. وثار نصر بن شبث في الجزيرة (القسم الشمالي من العراق من تكريت والانبار شمالا) (٢) احتجاجا على الوجهة الفارسية و « محاماة عن العرب » .

واشتعلت الثورة في العراق والجزيرة العربية حول الراية العلوية ما دام الخليفة العباسي يسير في دائرة فارسية . ولم يبق للمأمون الا ان يخرق الطوق وان يبطل سياسة الفضل بن سهل وان يعود الى بغداد لئلا يفقد كل شيء . فكانت نهاية اخطر ممثل للشعوبية على الصعيد الوزاري .

ولئن فشل الفضل بن سهل في نقل السلطة الى الفرس ،فان طاهر بن الحسين احد قادته نجح في وضع اسس اول امارة فارسية بعد الفتح الاسلامي . لعب طاهر بن الحسين الدورالاول في تمزيق قوات الامين ، وكان اليد الحديدية في حصار بغداد حتى دك بعض محلاتها دكا ، وكان المسؤول عن قتل الامين بعد اسره .

وقد ارسله الفضل بن سهل الى الولايات الغربية لانه يريد يدا حديدية تقمع الثورات هناك ، ولانه يخشى طموحه في مرو ، ولكن طاهر رأى في ذلك استهانة به . وطاهر بن الحسين خراساني ، يتحمس لفارسيته ولا يطمئن للعرب او

---

(١) انظر الجهشياري ــ الوزراء ص ٣١٣ .

(٢) قال نصر بن شبث «ان هواي مع بني العباس وانما حاربتهم محاماة عن العرب ولانهم يقدمون عليهم العجم» انظر احمد فريد الرفاعي، « عصر المأمون » ج ١ ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ .

للمامون سيده (١) .

طاهر بن الحسين

وبعد عودة المأمون الى بغداد توسل طاهر بن الحسين بوسائل ملتوية للحصول على ولاية خراسان ، ورغم شك المأمون بنواياه فانه نجح في مسعاه . وكانت خراسان مضطربة ، وترى في عودة السلطة الى بغداد ضربة شديدة لآمالها . وعمل طاهر بن الحسين على تركيز كيانه في خراسان ، وكان لاسرته نفوذ محلي قوي ، وتدرج في خطته الى الخروج على المأمون . ولكنه توفي فجأة

---

(١) اعرب عبدالله بن طاهر عن هذه النزعة الفارسية في قصيدة يفخر فيها بنسبه ، ويتبجح بقتل الامين ، فقال :

انا من قد تعرفي نسبه	سلفي الغر البهاليل
مصعب جدي نقيب بني	هاشم والامر مجهول
وابي من لا كفاء له	من يساوي مجده قولوا
انظر المخلوع كلكله	وحواليه المقاويل
فثوى والترب مضجعه	غال عنه ملكه غول
قاد جيشا نحو نائلة	ضاق عنه العرض والطول
من خراسان مصمم	كليوث ضمها غيل

قال محمد بن يزيد الاموي : وكنت لما بلغتني هذه القصيدة امتعضت للعرب وانفت ان يفخر عليها رجل من العجم ، لانه قتل ملكا من ملوكهم بسيف اخيه لا بسيفه فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع فرددت عليه قصيدته فقلت :

قاتل المخلوع مقتول	ودم القاتل مطلول
يا ابن بنت النار موقدها	ما لحاديها سراويل
اي مجد لك تعرفه	او نسيب لك بهلول
ما جرى في عود سالفكم	ماء مجد فهو مدخول
قدحت فيه اسافله	فاعاليه مهازيل

انظر القصة في التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج١ ص ٦٦ ـ ٦٧

بعد بضعـة ايام . الا انـه ، كمـا يبدو ، نجح في تثبيت سلطته لدرجـة ان الولايـة اعطيت لابنائه من بعده ، وهكذا تكونت اول امارة فارسيـة (في خراسان) هي الامارة الطاهرية . وكانت هذه بدايـة سلسلة من الامارات الفارسيـة التي تتمتع بحكـم ذاتـي وترتبط اسميـا بالخلافة. وكان نجاح طاهر نتيجـة لطموحـه الفارسي ولانتشار الوعي الفارسي .

الامارات الفارسيـة

وحيث فشلت حركات الفرس من الفلاة ومن اتباع الديانات المجوسية ، نجح بعض الفرس المسلميـن في تكوين امارات فارسية لهـا دورها في بعث الحياة الفارسية وفي احياء التراث والادب الفارسـي .

وفي ظل هذه الامارات ظهرت طلائع الادب الفارسي (١) . فقد نظم الشعـر الفارسي زمن الصفارين ، وترد الاشارة الى شاعريـن من تلـك الفترة ، وهمـا فيروز المشرقي وابو سليك الجرجاني(٢). ويرد اسم حنظلة الباذ عيسى (ويحتمل انه توفي سنة ٢٢٠) من عصر الطاهريين وكان له ديوان بالفارسية كمـا يظهر (٣) .

وكان للعصر الساماني دور ملحوظ في قيـام الادب الفارسي الحديث . فقـد حاول السامانيون احياء النظم السامانية فـي

---

(١) هنالك اشارات الى بدايـة النظم في زمن المامون ، فيرد ذكـر قصيـدة لشاعر اسمه عباس ، ويرد اسم شاعـر فارسي اسمه عباس طرخان ،ويروى ان محمد بن البعيث الذي ثار فـي اذربيجان زمـن المامـون نظـم شعرا بالفارسية ، انظر بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٧ .

(٢) علي اكبر فياض ـ محاضرات عـن الشعـر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايـران ص ٥ ، و ص ٨ .

(٣) ن.م. ص ٦ ـ ٧ .

الادارة ، وسلكوا سياسة تتمثل فيها النزعة القومية الفارسية مع مراعاة الاسلام . وفي عصرهم ترجم كتابا الطبري في التاريخ والتفسير الى الفارسية ، بعدما افتي بجواز ذلك كما افتي بجواز الصلاة باللغة الفارسية . وفي عصرهم جمعت تواريخ الفرس القدماء في كتاب (الشاهنامه) أو (شاهنامه منصوري) . وحاول الشاعر الدقيقي ابو منصور بن احمد شاعر العصر الساماني نظم الشاهنامه شعرا ولكنه قتل قبل ان يتم عمله.

وكان الفردوسي ، الشاعر العظيم نتاج البيئة الثقافية السامانية ، وهو الذي نظم الشاهنامه المشهورة .

ومن شعراء السامانيين ، الشاعر الرودكي السمرقندي الذي نظم كليلة ودمنة شعراء وهذا بداية الشعر القصصي.

وقد بدت من بعض الشعراء السامانيين آراء فيها عاطفة زردشتية . فالشاعر الرودكي السمرقندي يقول « لا معنى لتحويل القبلة للاسلام والقلب منجذب الى القدسية المجوسية ». وعبر عن السماء والارض بانهما ابو الانسان وامه وهو يرمي بذلك الى اراء مجوسية . وعبر عن صلته بالمجوسية حين قال انه يفضل شفتي حبيبه ودين زردشت على كل شيء .

وبهذا يمكن القول ان بدايات الثقافة الفارسية الاسلامية ترجع الى العصر الساماني (١) .

الافشين

ولنعد للعاصمة (سامراء) لنرى مثلا آخر لشعوبية الاشراف الفرس. فهذا الافشين حيدر بن كاووس من اسرة امراء اشروسنه ، يرتفع في المناصب العسكرية زمن المعتصم حتى يصبح قائد قواته المسلحة . ولن نعلق على دوره الغامض في ثورة

---

(١) ن.م. ص ١٣ ـ ١٧ وص ٢٦، بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص٦٧ـ٧١.

بابك الخرمي ، ولكننا نجده وهو مسلم ، كما هو مفروض ، يحتفظ بكتبه الدينية القديمة ، ولا يختتن ويحتفظ ببعض الطقوس المجوسية . ويتضح من موقفه من القائد العربي ابي دلف العجلي انه شديد الكره للعرب ، وانه لا يستطيع رؤية مثل هذا القائد في الجيش، حتى جره الى داره واراد قتله لولا ان تدارك احمد ابن ابي دؤاد (قاضي القضاة) الموقف .

واليك بعضا مما دار في المحاورة بين ابن ابي دؤاد والافشين في داره لتاخذ فكرة عن الموضوع . قال ابن ابي دؤاد « فقلت له اي (الافشين) القاسم .. بن عيسى فارس العرب وشريفها فاستبقه وانعم عليه . فان لم تره لهذا اهلا فهبه للعرب كلها ، وانت تعلم ان ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب ومن ذلك ما كان من كسرى الى النعمان حتى ملكه . وانت اليوم بقية العجم فانعم على شريف من العرب بالعفو عنه » (١) . وانت ترى التقابل بين العرب والعجم ، وتحس بن الافشين يرى نفسه بقية ملوك العجم وتحس بنطاق التسلط الشعوبي .

وكان الافشين واسع الطموح ، وتشعرك وقائع محاكمته انه كان يحلم باعادة المجد الفارسي بعد ضرب الاتراك والعرب وهم قوام جيش المعتصم. ويبدو لي ان الافشين كان يفكر بمثال طاهر ابن الحسين، وينظر الى تكوين امارة في منطقة ما وراء النهر، كما فعل آل طاهر في خراسان . وفعلا حافظ الافشين على صلاته الوثيقة بأهالي اشروسنه (في ما وراء النهر) وكان رغم اسلامه يتقبل الرسائل منهم باستهلالها المجوسي«الى اله الالهة من عبده فلان » (٢) .

وكان يرسل ما تجمع لديه من اموال وذخائر الى هناك وخاصة الاموال الكثيرة التي حصل عليها خلال الحملة ضد

---

(١) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٦٦ .

بابك الخرمي . ويبدو ان الافشين كان يفكر بخراسان ومن هنا اختلافه مع آل طاهر ، كما ان صلاته بالمازيار اصبهبذ طبرستان، تدعو للظن بأنه كان يفكر بدولة فارسية (١) .

ولا يهمنا ان نتحدث عن مؤامرة الافشين الاخيرة على المعتصم او على بعض قادته ويمكن الرجوع اليها في مصادرها ، ولكن المهم لدينا هو ان الافشين يمثل هذا الصنف من الاشراف الفرس الذين احتضنتهم الخلافة العباسية ، ولكن نزعتهم الفارسية جعلتهم يحاولون استغلال السلطان العربي الاسلامي لضرب هذا السلطان والعمل على احياء الكيان الفارسي .

ولعلك تلاحظ ان كلا من الفضل بن سهل والافشين كان حديث عهد بالاسلام ، ويورد الطبري رسالة من اخي الافشين الى اخي المازيار جاء فيها « انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض (اي المجوسية) غيري وغيرك وغير بابك (الخرمي) ، فأما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت ، فأبى حمقه الا ان دلاه فيما وقع فيه . فان خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيري ، ومعي الفرسان واهل النجدة والبأس . فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة العرب والمغاربة والاتراك . والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب راسه بالدبوس . وهؤلاء الذباب ، يعني المغاربة ، انما هم اكلة راس. واولاد الشياطين، يعني الاتراك ، فانما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم » (٢). وهي رسالة تنبي عن شدة حقد الافشين على العرب وعن أتحاد المجوسية بالمجد الفارسي في تفكير الافشين وفي طموحه .

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ، العيون والحدائق (خلافة المتصم) ص ٦٢ ـ ٣ .

(٢) الطبري ج ١٠ ـ ص ٣٦٧ .

هذا هو حال بعض الاشراف الفرس الذين ساهموا في الحكم، والذين وجدوا فيه سبيلا للعمل على اعادة مجد بلاد الفرس فحل الدس والاصطدام محل التعاون، وانهار الاساس لتبلى الدولة العباسية بالترك منذ زمن المعتصم . وهو حال يشعر بقوة الوعي بين الشعوب الاخرى ، وخاصة الفرس . فلم ترضها المشاركة في الحكم ولم يرضها ان تكون جزءا من دولة موحدة .

شعوبية الادباء والكتـــاب

وحين ننتقل من الاشراف الى الجماعات الاخرى ، يطالعنـــا الادباء والكتاب الذيـــن حملوا راية الشعوبية واعلنوا الاتجاه . وكان العصر العباســـي ، في مطلعه خاصة ، فترة رفع فيهـــا الغطـــاء وتكشفت الميول والاتجاهات التي كانت متسترة او مكبوتة لتندفع بعنف وتطرف . وهذا طبيعي في الفترات التي تعقـــب الثورات . ووجدت الجماعات الشعوبيـــة فرصتها ، حين اعتقدت ان الصرح العربي قـــد انهار تحت ضربات قوات اعجمية ، من الخراسانييـــن بالدرجـــة الاولى ، كمـــا ان العباسيين ارادوا اظهـــــار المساواة الاجتماعيـــة والسياسيـــة بيـــن شعوب الخلافـــة ، وارادوا تالف الشعوب غير العربيـــة وخاصة الفرس ، وسعوا لتكويـــن دولـــة اسلامية تتعاون فيها الشعوب المختلفة ، فافسحوا المجال واسعا امامهـــا لتظهـــر نشاطها ، فكريـــا وغير فكري . ويبـــــدو ان العباسيين شجعوا الجماعات التي كانت تتظاهـــر بالدعوة الـــــى المساواة ، وبينهـــا مجموعات من غير العرب ، تبيـــن بوضوح انهـــا شعوبيـــة النزعـــة .

وبنفس الوقت قرب العباسيون الفقهاء ، واظهروا اعتمادهم عليهم واعلنوا عـــن استنادهم الى الشريعة في الحكم ، وحاولوا فهم

متطلباتهــا وتطبيقهــا احيانا في الحياة العامة كمــا يتبين مــــن طلبهم لأبي يوسف وضع كتاب في احكام الضرائب، ومن اتصالهم بمالك بن انس لوضع مدونــة فقهية شاملة . وجعــل العباسيون حمايــة الاسلام من اهدافهم الاساسية ، وهم يدركون ان الاســلام قاعدة السلطان، وان التهجم عليه او المروق منه ينطوي على تهديد للكيــان القائم . ومن هنــا جاء موقف العباسيين الحازم من الزندقة بعــد فترة قصيرة .

ثم ان العباسيين بدورهم لقوا خيبة مريرة في آمالهــم بأن تحقيق المساواة يضمــن لهم التعاون والتأييد الكليين من غيـــر العرب ، فقــد جابهوا الثورات التي المحنا اليها ، وجابهوا حركة الزندقة التي هددت كيانهم ، وشهدوا النشاط الشعوبي.

ولكننا لن نستبق الحوادث ، فان الجو العباسي بدأ مفتوحا وتكشف بالتدريج عــن النزعات والميول والاهواء ، بــل ان لدينا ما يشيــر الى ان العباسيين كانوا يتسامحون في البدء مع كل حركة لا تهــدد سلطانهم بمــا في ذلــك نشاط بعض الزنادقة (١) . حتى اذا اتضحت اخطارهــا اتخذوا موقفــا آخر . ومع ذلك فان الموقف مــن الشعوبيــة لــم يكــن واضحــا احيانــا لان الحركة تمثلت بأشكال ومواقف مختلفة .

والواقع ان الشعوبيــة بمفهومها الدقيق لــم تنكشف تمامــا الا في العصر العباسي الاول ، وعندئذ لا نرى مجالا للفصل بيــن الشعوبيــة والتسويــة ، بل يختلط اللفظــان كمــا نرى فـــي كتابات ابن قتيبة والجاحظ . يقول الجاحظ فــي (البيان) ونبدأ علــى اسم الله بذكــر مذهب الشعوبيــة ومن يتحلى باســـــم التسويــة » (٢) ويعــود فيقــول « قالت الشعوبيــة ومن يتعصب

---

(١) انظر الاغاني (ط . الساسي) ج ١٤ ص ٨١ عــن صلات مطيع بن اياس بدار الخلافــة زمن المنصور .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٥ .

للعجمية» (١) ويعتبر ابن عبد ربه الشعوبية واهل التسوية جماعة واحدة فيقول « قالت الشعوبية وهم اهل التسوية» (٢).

وأما اللسان فيعطي تعريفا واضحا للشعوبية حين يقول « الشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم » .

عندما تظهر الشعوبية واضحة ، نرى العصبية الضيقة لديهم ، ونرى حقدا على العرب وحسدا لهم ، وعملا ضدهم .

وقد ظهرت هذه المقاومة للعرب والهجوم عليهم لدى الفرس بالدرجة الاولى . وتمثلت في طبقاتهم المختلفة باشكال متباينة ، ولكن هذا لا يعني انها شملت الجميع ، بل انها تمثلت في جماعات من مختلف الفئات . وقد كان التمسك بالدين رادعا عن الانذفاع في تيار الشعوبية كما ان عوامل اخرى اثرت في نفس الاتجاه ، وقد لاحظ ابن قتيبة ذلك حين قال في معرض حديثه عن الشعوبية ، « فأما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا» (٣). ومن الاكيد ان المتدينين وقفوا بعيدا عن الشعوبية ، وربما صدق ذلك على بعض الاشراف ، ولكن البعض الآخر سار في التيار الشعوبي كما لاحظنا .

العامة

ويبدو ان الشعوبية باشكالها وجدت تأييدا لدى العامة ، بانضمامهم الواسع الى حركات الغلو، وفي مشاركتهم في كثير من الحركات ضد العرب . ويرى ابن قتيبة ان العامة اكثر اندفاعا

---

(١) ن.م.ج ص ١٣٠، ابن قتيبة ـ كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص ٣٤٤ .

(٢) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤٠٣ ـ ٤ .

(٣) رسائل البلغاء ـ ابن قتيبة ـ كتاب العرب ـ ص ٣٤٥ .

في الشعوبيــة من غيرهم ، فهــو يقول « ولم ار في الشعوبيــة ارسخ عداوة ولا اشـد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وابنــاء اكرة القرى » (١) . وابن قتيبة واضح في تصنيفه للناس الى اشراف والى هذه الفئات من العامة . بل ويذهب ابـن قتيبة الى ادخــال جماعات من الكتاب في العامة ، فيشكو بمرارة من ايغالهم في العصبيــة وفي بغض العرب ومهاجمتهم ، وهنا نأتي الى دور الكتاب والادباء .

احياء الثقافــة الفارسيــة

ظهر نشاط الادباء والكتاب في مجالات مختلفــة تؤدي الــى نهايات متآلفــة في هدف واضح وهو محاولة تأكيــد التـــراث القديم ، والتنكــر للتراث العربي ، والعودة الى الثقافة القديمــة في الشرق الادنى . وقد يظـن ان هذا التراث وتلك الثقافــة كانت فارسيــة صرفة ، ولكــن الدراســات التاريخيــة تدل علــى ان الاساس هــو الحضارة السامية التــي اقتبس الفرس نصيبا كبيرا منهــا واضافــوا شيئا اليهــا ، ولكنهم انفردوا بالديانات المجوسية (الزردشتية والمانويــة والمزدكية) وهي في جوهرها فارسية . ومن المنتظــر ان تكــون الثقافــة القديمــة التي يريدهــا الكتــاب مــن الحضارتيــن الساميــة والفارسية ، ولكــن التأكيــد كله كان على الحضارة الفارسية وعلى المثل والديانات الفارسيــة .

وبذل الكتاب والادباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية ، وحاولوا بث الطابع الفارسي في الادارة والمواسيـــم العباسية ، هذا مع تقليل شأن الثقافــة العربية الاسلاميـــة والاستهانــة بهــا . وكان موقفهم يستنــد الى العصبية الجامحة لا الى الادراك . قال ابن قتيبة « واعاذنا الله مــن فتنة العصبيــة

(١) ن.م. ص ٣٤٥ ـ ب

وحميـــة الجاهليـــة وتحامل الشعوبيـــة ، فانهـــا بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عـــن كل فضيلة وتلحق بهـــا كل رذيلة، وتغلـــو في القول وتسرف فـــي الذم وتبهت بالكذب وتكابـــــــر بالعصيـــان » (١) .

واتخذ نشاط هؤلاء سبلا مختلفة ، منها اكثارهم من الترجمة عـــن الفارسيـــة في موضوعات تتصل بصميم الـــذات الفارسيـــة كالادب والتاريخ والتقاليـــد والمثل . وقد شهـــد العصر العباسي الأول حركـــة ترجمـــة واسعـــة عـــن الفارسية ،وهي مستقلة عـــن حركـــة الترجمـــة التي تبناهـــا الخلفاء . ومن امثلة هذه الترجمات (خداينامه) او سيـــر الملوك (ملوك الفرس) ، وهو كتاب ينطوي على كثيـــر من الاساطيـــر والمواعظ والتمجيد ويغلب عليـــه عنصر القصة والاسطورة . ونظرا لخطورته لدى الفرس فاننا نسمع عـــن ثمانية صور لـ (خداينامه) ، بعضهـــا مترجم والبعـــض الاخـــر مؤلف ومترجم . ومنهـــا (الآيين نامه) او المراسيم والتقاليـــــــد الساسانية ، وكتاب (مزدك) وهو يتضمن ادبا ومثلا اخلاقيـــــة مجوسية لا تأتلف والمفاهيم الاسلامية، وقد ترجمه ابن المقفع كما أعـــد أبان بن عبد الحميد اللاحقي ترجمة اخرى له . ومنها كتاب التاج في سيرة انوشروان وكتاب (كليلة ودمنة) الذي تصرف ابن المقفع في ترجمته واضاف اليه بابا (باب برزويه) للترويج للمانوية كمـــا اوضح البيروني . ومنهـــا كتاب سيرة الفـــرس المعروف بـ (اختيار نامه) نقله اسحق بن يزيد (٢) . هذا وترجمت بعض الكتب الدينية ، وخاصـــة الكتب المانويـــة كمـــا نفهم من المسعودي وابن خلكان وابن النديم (٣) . الذي حفظ لنا قائمة ببعض هذه

---

(١) ن.م. ص ٣٤٤، وانظر الجاحظ ــ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ــ٣٠ .

(٢) ابن النديم ــ الفهرست ص ٣٣٢، ص ١٧٢، ص ٣٤٢ .

(٣) انظر ابن النديم ص ١٧٣ ، المسعودي ــ مروج الذهب (ط . باريس) ج٨ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ ، ابن خلكان (نشر محيي الدين عبد الحميد)ج١ ص٤١٢.

الكتب المترجمة .

لم يكتف الكتاب بالترجمة ، بل انهم وضعوا الشيء الكثير ونسبوه الى الفرس القدماء ليضفوا عليهم من الامجاد ما يساعد على احياء الوعي الفارسي وعلى التقليل من شأن الحضارة العربية الاسلامية . يقول الجاحظ « ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بايدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة ، اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبيد الله وعبدالحميد وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير» (١) .

بل ان بعض هذه المؤلفات الموضوعة نسبت الى بعض الاعلام لتكتسب قيمة خاصة ، والا فكيف نفسر وجود كتاب (التاج) الذي ينسب للجاحظ ، وهو بمحتواه كتاب (آيين) يتصل بالمراسيم الساسانية مع اضافات تتصل بالخلفاء الامويين والعباسيين، هدفه ان يظهر هؤلاء تابعين ومقلدين للملوك الفرس . وكيف ننتظر من الجاحظ الذي بذل جهودا كبيرة لرد الشعوبية ان يعمل ذلك؟ الم تكن نسبة الكتاب اليه فنا جديدا من فنون الشعوبية ؟

وجهد الكتّاب ان يبينوا (كما ترى في كتاب التاج) ان الحضارات القديمة خاصة الساسانية اساس كل شيء ، وان الحضارة العربية الاسلامية لا تعدو ان تكون اخذا عن تلك الحضارة. وذهبوا الى حدود بعيدة في ذلك، فهذا ابن وحشية، وهو نبطي ، يؤلف كتاب (الفلاحة النبطية) ليظهر رقي الزراعة عند النبط في القديم وليظهر ان اساس فن الزراعة يعود اليهم . وحين تقرأ الكتاب تجد فيه تفصيلات واسعة عن اساليب الزراعة بعضها لا يبعد كثيرا عن السحر والطلاسم (٢) .

---

١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) توجد مخطوطة لكتاب (الفلاحة النبطية) لابن وحشية في مكتبة بودليان باكسفورد وقد اطلعت عليها منذ سنين .

وحاول الكتاب بصورة خاصة ان يحيوا المراسيم الفارسية والتقاليد الادارية ، ووجدوا استعدادا وتشجيعا من بعض الوزراء الفرس كالفضل بن سهل. جاء في الجهشياري « وكان ذو الرياستين (الفضل بن سهل) يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه اذا اراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فاذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود ويقعد عليه ، وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الاكاسرة . فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين ايديها عليه » (١) . ولعل الجناحين يمثلان اجنحة اهورامزدا اله الخير عند الزردشتية .

واراد الكتاب ان يؤكدوا على الارث الثقافي الفارسي في تكوينهم الثقافي وان يوجهوا الناشئة اليه وان يصرفوا الاذهان عن الثقافة العربية الاسلامية . جاء في البيان والتبيين « قالوا (اي الشعوبية) ومن احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروند ، ومن احتاج الى العقل والادب والعبر والمثلات والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في سير الملوك ، ثم يشير الى تبجح الشعوبية برسائل الفرس وخطبها والفاظها وباليونان ورسائلها وخطبها وعلمها وحكمها ، وبكتب الهند في حكمها واسرها وسيرها وعلمها » (٢) . ويعطي الجاحظ صورة حية لموقف الكتاب من اعتزاز بآثار الفرس الثقافية ، ومن ترويج لها ، ومن ازورار عن الثقافة العربية ومن تجريح للدراسات العربية الاسلامية من حيث انهم يتشدقون بحكم بزرجمهر وبسياسات انوشروان وبعبقرية الفرس ، فهو يبين ان الناشىء منهم متى « وطىء مقعد الرئاسة

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٣١٦ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤ .

وصارت الدواة امامه ، وروى لبزرجمهر امثاله ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع ادبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، انه الفارق الاكبر في التدبير » ثم يكون « اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار (أي التاريخ العربي) وتهجين من نقل الاثار » .

التشكيك بالثقافة العربية

يتخذ الكاتب هذا الموقف اذا اطمأن ، اما اذا حذر العيون فانه يتخذ موقف المشكك بالنصوص الاسلامية ، فهو « يرجع بذكر السنن (الحديث) الى المعقول ، وبحكم القرآن الى المنسوخ ونفي ما لا يدرك بالعيان . وشبه الشاهد بالغائب ، لا يرتضي من الكتب الا المنطق ولا يحمد الا الواقف ولا يستجيد منها الا السائر » . وبهذا يبين اسلوب التشكيك الذي يتبعه بعض الكتاب ليزعزعوا العقائد وليربكوا المفاهيم . ثم يذكر الجاحظ موقفهم في تجريح اعلام الثقافة العربية الاسلامية ، اذ يقول « فان استرجع احد اصحاب الرسول (ص) فتل عند ذكرهم شدقه ولوى عن محاسنهم كشحه ، وان ذكر شريح جرحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وان وصف له الشعبي استحمقه ، وان قيل له ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخعي استصغره ، ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان وتدبير انوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان » (١) .

وهو موقف يشعرك بتصغير شأن العرب وثقافتهم حتى في الاسلام ، وبأنه لم يسلم من تهجم شعوبيي الكتّاب حتى القرآن والحديث . ويبدو ان الكتاب على تضلعهم بالعربية وادبها كانوا

(١) ثلاث رسائل للجاحظ، باعتناء يوشع فنكل ص ٤٢ ــ ٤٣ .

لا يعنـون باصول الثقافـة العربية الاسلامية ، بـل ان الجاحظ يتهمهم في تكويـن ثقافتهم ويقول . « انه لـم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا علمه مسيره ، ولا التفقه في الديـن شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده » . وقد يكون في قوله بعض التطرف، فهو يعترف بوجود البعض منهم ممـن يهتم بالحديث والفقه، ولكنهم قلة، وان وجد أحد منهم نفر منه زملاؤه واستثقلوه وتخلـوا عنـه (١) .

ومن هذا ترى ان الكتاب بذلوا مجهودا كبيـرا لطبـع الادارة العباسية وثقافـة اصحابهـا بطابع اعجمي ، كـل ذلـك فـي ظل دولة عربيـة اسلاميـة .

ومن ناحيـة اخرى ، اندفع الشعوبيون في الكتابة فـي مثالب العرب وفي الحط منهـا وراحوا يتلمسون كل مـا يعينهم على ذلـك . ويوجـز ابن قتيبة موقف الكتاب بقوله « فـان هـو (اي الكاتب الشعوبي) عرف خيرا ستره ، وان ظهـر حقره ،وان احتمل التأويلات صرفه الى اقبحها ، وان سمع سوءا نشره ، وان لم يسمعه نفر عنه ، وان لـم يجده سخر منه » (٢) .

لدينا اشارات الى بعض المؤلفات ، وبعض النتف المبعثرة . فهذا علان الشعوبي، وكان راوية عارفـا بالانساب والمثالـب، الف كتاب الميدان في المثالب « هتك فيه العرب واظهـر مثالبها » . وله عدة كتب في مثالب قريش ، وتيم بن مرة بن كعب وبني اسد ابن عبد العزي وبني مخزوم وعبد الدار بن قصي وغيرهم (٣). وكان سعيد بن حميد بن البختكان (شديد العصبية على العرب) وله من الكتب كتاب «فضل العجم على العرب وافتخارها » (٤)

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ، ص ٤٢ .

(٢) رسائل البلغاء ص ٢٤٥ ـ ٦.

(٣) انظر ابن النديم ـ الفهرست ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٤) ن.م. ص ١٧٩ .

واكثر الجهمي من المثالب « وتناول جلة الناس » ، وتطاول في هجومه على العمريين والعثمانيين « فذكر سلفهم بأقبح ذكر فقال له بعض الهاشميين في ذلك فذكر العباس بأمر عظيم » ، فعاقبه المتوكل . وله كتاب في المثالب (١) والف ابو عبيدة معمر بن المثنى في المثالب واكثر في ذلك ، واورد في شرحه للنقائض الشيء الكثير منها .

وكان سهل بن هارون « شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة » (٢). نكتفي بذكر هذه الامثلة ، والروايات في كتب الادب والتاريخ كثيرة وغريبة .

---

(١) الفهرست ـ ابن النديم ـ ص ١٦٢ .

(٢) ن.م. ص ١٧٤ .

الشعوبية في الحقل الدينـــي

(الزندقـــة)

المانويـة

وبجنب هذه الفعاليات الادبية والفكرية للشعوبية ، نـرى النشـاط المانوي ، وهو نشاط فكري في الحقل الديني . فنحـن نلاحظ فعاليـات واسعـة للتبشير بالديانـة المانوية بصـورة متسترة، عمل اصحابها مستندين الى مبدأين اساسيين فيهـا، اولهما التأويل الذي يمكن من تفسير النصوص الدينية لاصحاب الديانات الاخرى وخاصة الاسلام تفسيرات تخرجهـا الى مدلولات ومفاهيم مانوية ، وثانيهمـا المزج الداخلي او الاخذ مـن الديانات والمذاهب الاخرى وصهر ذلـك في البوتقة المانوية لتعزيزهـا ولكسب الآخريـن اليهـا .

ولما كانت الديانات الفارسية القديمة اقوى مثل للـذات الفارسية المجوسية ، فان الدعوة اليهـا تنطوي عـلى وعـي فارسي بين المجوس، وعلى جهد لمكافحة الاسلام وحملته وخاصة

العرب. وقد استغل المانوية بعض الشبه الظاهر بين بعض طقوسهم والشعائر الاسلامية كالصلاة والوضوء من جهة ليستروا مانويتهم ، كما تظاهروا بالرجوع الى العقل والى التفسير العقلي للاسلام ليخفوا حقيقتهم ويبثوا آراءهم . ولذا نجد اسم الزندقة ـ او الانحراف عن الاسلام ـ يغلب عليهم .

وهم في الاساس يرون في هدم الاسلام من الداخل السبيل لتحقيق اهدافهم،ويوضح السيدالمرتضى اسلوب الزنادقة ويقول « فقد نشأ جماعة ممن يتستر باظهار الاسلام، ويحقن باظهار شعاره والدخول في جملة اهله ، دمه وماله ، زنادقة ملحدون . وبلية هؤلاء على الاسلام واهله اعظم واغلظ ، لانهم يوغلون فيالدين ويموهون على المستضعفين بجاش رابط وراي جامع ، فعل من قد أمن الوحشة ووثق بالانسة ، بما يظهره من لباس الدين هو منه على الحقيقة عار » (١) .

ولا نريد هنا ببحث الزندقة ، الا ان نشير الى التقاء خطها مع الشعوبية فيما تنطوي عليه من وعي فارسي ،وفي كرهها للعرب، وفي سعيها لنسف الكيان عن طريق هدم الاسلام من الداخل.

الزندقة تعادي الاسلام والعروبة معا

ولذا نجد الشعوبية تنتهي في كثير من الحالات بالخروج على الاسلام وبالزندقة ، فهي تبدأ من التهجم على العرب الى مهاجمة العربية وتنتهي بالهجوم على الاسلام. وقد ادرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة، حين قال : «فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فاذا ابغض شيئا أبغض اهله، وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب

---

(١) امالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٧ ـ ٨ .

هي التي جاءت به وكانوا السلف» (١) .

هنا يبين الجاحظ الترابط بين العروبة والاسلام، كما يبين كيف ان العداء للعروبة يؤدي الى الزندقة في كثير من الاحيان، وهو يبين في محل اخر كيف ان الشعوبية تؤدي الى التجاوز على الدين والى تجاوز كافة القيم. ويقول : «ثم انك لم تر قوما اشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه ولا اشد استهلاكا لعرضه ولا اطول نصبا ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة » (٢). ويوضح ابن قتيبة ان الشعوبية تدفع اصحابها الى الغلو في القول، والى الاسراف في الذم، وانها «تكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتغضي من النبي (ص) اذا ذكر بالشيء وتطرق منه على القذى وتبعد عن الله بعدها ممن قرب واصطفى » (٣) .

ويلزمنا ان نلاحظ ان العروبة بنظر الاعاجم، ترتبط ارتباطا كليا بالاسلام حتى ان البعض يعتبر المسلم من غير العرب عربيا. فحين وعد اشرس بن عبدالله السلامي (امير خراسان لهشام بن عبد الملك) باعفاء من يسلم من الجزية وكثر الداخلون في الاسلام، شكا الدهاقين الفرس (النبلاء المحليون) قلة وارد الجباية، وكتبوا الى اشرس «ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا» (٤) اي مسلمين .

وكان الفرس المجوس يسمون الاسلام في العصر العباسي (الدين الاسود) لان شعار العباسيين هو السواد.

وهذه النظرة لها جذورها، كما اعرب الجاحظ في اشارة عابرة حين ذكر «الشعوبية والازادمردية (اي الاحرار) المبغضون

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤ .

(٢) ن.م. ج ٣ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) رسائل البلغاء ص ٣٤٤ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

لآل النبي (ص) واصحابه، ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالاسلام» (١). فالعرب هم الذين حملوا راية الاسلام الى الشعوب الاخرى، واعطوا الاسلام نطاقه الجغرافي الاول بالفتوحات. وصحب انتشار الاسلام توسع العربية اذ نزل القرآن بلسان عربي مبين، وجاء الحديث بالعربية الرائقة، وقام العرب بالدور الاول في وضع خطوط اللغة وفي رسم المذاهب الفقهية، وعربوا الدواوين والادارة في صدر الاسلام وبذلك مهدوا لسيادة العربية. وعمل العرب بجد وحماسة لتكوين العلوم العربية والاسلامية ورسم اطارها العام الى ان جاء دور الشعوب الاخرى لتشارك في هذه الثقافة فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية.

وكان العرب، او قادتهم، يشعرون بعمق وايمان بأنهم حملة رسالة، هي رسالة الاسلام، وانهم لم يخرجوا لمجرد الفتح او الغنيمة. وانعكست هذه النظرة في حياتهم وتنظيماتهم الادارية، فتأسيس الديوان (ديوان الجند)، وتنظيم الضرائب، وانشاء الحواضر الجديدة (البصرة، الكوفة، الفسطاط، القيروان)، وتشجيع الهجرة الى البلاد الجديدة يشعر بأن الاساس الاول للتنظيم هو فكرة الجهاد.

ومع ذلك، كانت تتخلل المجتمع العربي نظرتان – نظرة قبلية، فيها عصبية وفيها تفاخر بالنسب، وفيها غرور وضيق، ونظرة سمحاء تمثلت بالاسلام، تقف ضد القبلية ومفاهيمها، وترى في الايمان رابطة واسعة، كما ترى في العربية صلة وقربى ضمن نطاق الاسلام. وكانت النظرة الثانية تزداد رسوخا وسعة على مر الايام، وكان انتصار العباسيين دليلا على تفوقها. وبانتشار الاسلام ودخول جماعات متزايدة من الشعوب الاخرى فيه، عن رغبة وايمان، بدأت هذه الشعوب تشارك في حمل رسالته، ولم تعد قاصرة على العرب وحدهم، وعلى هذا الاساس بنى العباسيون

---

(١) الجاحظ – البخلاء، ص ٢٠٩.

خطتهم في مطلع دولتهم الجديدة .

ولكن نشاط العرب الثقافي، ودورهم الواسع في طبع الحضارة الجديدة بطابع عربي اسلامي، وفي تكوين ثقافة عربية غنية جعل لهم رسالة حضارية الى الشعوب الاخرى هي رسالة الحضارة العربية الاسلامية. ثم ادرك العرب، في فترة المساواة العباسية رد الفعل لدى الشعوب الاخرى، ولاحظوا العصبية للقوميات (١) والثقافات الاعجمية فراحوا يؤكدون على الثقافة العربية، ويعنون بالارث الثقافي العربي ككل، قبل الاسلام وبعده، وخاصة في الشعر والتكوين اللغوي .

ومن الواضح بعد هذا العرض، ان الشعوبية وقرينتها الزندقة، لم تكن حركة طبقة اجتماعية معينة (كما اعتقد احمد امين) لانها تعبر عن وعي شعب او اكثر، ولأن هذا الوعي تمثل في صور مختلفة بين الجماعات المختلفة، ولأنه ظهر في اطار ثقافي وديني بين تلك الفئات التي لها المؤهلات الفكرية او الاستعداد الذهني اللازم. وكل محاولة لاكسابها صفة طبقية او لحصرها في فئة اجتماعية معينة انما يناقض طبيعتها وشمولها .

---

(١) يرد اول ذكر لكلمة (قومية) في رسالة يحيى بن مسعدة « النصف الاول للقرن الخامس الهجري » في رده على رسالة ابن غرسيه في الشعوبية . انظر نوادر المخطوطات المجموعة الثالثة، (١٩٥٤) ص ٢٧٧ .

مخطط الشعوبية الفكري

وحين ندرس حملات الشعوبية، نجد انها تنصب صراحة وقبل كل شيء على الجذور والاصول، فهي تهاجم العرب قبل الاسلام وتتهمهم في كل شيء، في اسلوب حياتهم، في مطاعمهم وملابسهم، في فصاحتهم وخطبهم، في اساليب قتالهم، في انسابهم، في علاقاتهم الاجتماعية، في كرمهم، في مقاييسهم الخلقية وفي مروءتهم.

كما انك ترى جزءا هاما من الردود ينصب على دفع هذه التهم، وعلى اظهار المروءة العربية والسجايا العربية الحميدة، وعلى الدفاع عن انساب العرب وعن كيانهم الثقافي وعن اسلوب معيشتهم آنئذ. وهذه الملاحظة ضرورية لفهم جانب مهم من الصراع الثقافي السياسي العنيف بين الشعوبية والعرب.

وقد يتبادر الى الذهن ان تركيز الشعوبية هجومهم على العرب قبل الاسلام يعود الى تقدير وضعهم الحضاري في الاسلام ولكن الشعوبية انكرت على العرب دورهم الحضاري. فلم يكن القصد اذن التمييز بين حال العرب قبل الاسلام وبعده، بل كان موقفهم هذا سبيلا يتستر به الكثيرون خوف السلطان القائم وخوف المؤمنين عامة لان هؤلاء يعرفون للعرب دورهم في الاسلام.

ولكن هذا التستر لم ينطل مدة طويلة لان هجمات الشعوبية امتدت بالتدريج الى فترات التاريخ الاسلامي. وكان طبيعيا ان تهاجم الشعوبية العصر الاموي مستغلة نظرة العباسيين وموقفهم من الامويين. ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل شوهوا التاريخ العربي في فتراته الاخرى مثل صدر الاسلام والعصر العباسي. فلم تسلم منهم فترة ولم ينج منهم احد. فانت ان تليت الروايات ورسمت منها هيكلا للتاريخ العربي حصلت على صورة فجة غريبة (١) .

امثلة من الشعر

واقدم ما وصل من اثار الشعوبية جاء في الشعر، ولكن النثر اوسع وهو يكمل الصورة. واول ما يطالعنا تفاخر الفرس بالانساب الفارسية وبالامجاد الفارسية. ومن ذلك قول اسماعيل ابن يسار :

اصلي كريم ومجدي لا يقاس به ولي لسان كحد السيف مسموم
احمي بهمجد اقوام ذوي حسب من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة جرد عتاق مساميح مطاعيم(٢)

ومنه قول بشار :

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
الا ايها السائلي جاهدا ليعرفني انا انف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعي واصلي قريش العجم(٣)

وترى التفاخر بالامجاد الفارسية قويا وأضحا، فهذا مهيار الديلمي يقول :

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا ابياتهم في الشهب

(١) انظر الدوري ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام (ط : ٢) ص١١ ـ ١٧ .

(٢) الاغاني ج ٤ ص ٤٢٢ ـ ٤ .

(٣) ن.م.ج ٣ ص ٢١ .

وهذا الصغدي يقول :

وابي ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لي لو تعلمين نسيب
ملكنا رقاب الناس في الشرك كلهم لنا تابع طوع القياد جنيب (١)

واستمع الى علان الشعوبي الوراق يقول :

ان لي فخرا مباءته في قرار النجم مأهول
ورجال شربهم غذق هم لما حازوا مباذيل
كسرويات ابوتنا غرر زهر مقاويل(٢)

وترى لدى البعض نبرة التهجم على العرب والتفاخر مقابل ذلك بامجاد فارس. وترى في هذا نوعا من التحدي ، تحدي المدافع واثبات كيان له، كقول بشار :

احين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع بني الاحرار حسبك من خسار(٣)

وكقول الشاعر الفارسي امام الصاحب بن عباد :

فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب في الفلا ساع وذئب بها يعوي وليث وسط غيل

وانظر الى قول الصغدي، ابو يعقوب الخريمي يتحدى ويدافع :

ابالصغد بأس اذ تعيرني جمل سفاها ومن اخلاق جارتي الجهل
وما ضرني ان لم تلدني يحابر ولا تشتمل جرم علي ولا عكل(٤)

واستمع الى تبرم بشار وسبابه في قوله :

وهجاني معشر كلهم حمق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم شرفي العارض قد سد الافق

وترى في الشعر نبرة فارسية قومية واضحة ، استمع الى

---

(١) معجم الادباء ج ٧ ص ١٨ .
(٢) ن.م. ج ٥ ص ٦٨ .
(٣) الاغاني ج ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧ .
(٤) معجم الادباء ج ٥ ص ٣٦٣ .

مهيار الديلمي حين يقول :

اي مجــد يضمنا وفخــار يــوم انسابنــا اليــه تصيــر
ان فقــدنــا السريــر والمنبــر المنصوب فالتاج حظنا والسرير
حسبنــا ان تعلــم الملك منــا والسياسات فيــه والتدبير

وهذا ابو نواس يتذكر تراث الساسانيين ويقول :

مسارحها الغربي من نهر صرصر فقطربــل فالصالحية فالصفر
تراث انوشروان كسرى ولم تكــن مواريث ما ابقت تميم ولا بكر
قصدت بها ليلى وليل ابن حــرة له حسب زاك وليس له وفــر

وترى لدى المتوكلي وجهة قومية تتغنى بالامجــاد الماضية وتحلم باعادتها ، اذ يقول :

انــا ابن الاكارم من نسل جــم وحائز ارث ملــوك العجــم
ومحيي الذي بــاد من عزهــم وعفى عليــه طــوال القــدم
وطــالب اوتارهــم جهــرة فمن نام عن حقهــم لــم انــم

ثم يقــول :

معي علــم الكابيــان الــذي بــه ارتجي ان اســود الامــم
فقــل لبني هاشــم اجمعين هلمــوا الى الخلع قبــل الندم
ملكناكــم عنوة بالرمــاح طعنا وضربا بسيــف خــدم
فعودوا الى ارضكم بالحجــاز لأكل الضبــاب ورعــي الغنــم
فانــي سأعلــو سرير الملــوك بحد الحسام وحرف القلــم

وترى جنب هذا سخرية بالعرب وتهكما، فيه استفزاز وفيه شطط واضح، فهذا ابو نواس يقول (١) :

عاج الشقي على رسم يسائلــه وعجت اسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اســد لا در درك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن عكل ومن يمــن ليس الاعاريب عندالله من احد

وهذا ابو العتاهية يتهجم على والبة بن الحباب في ادعائــه النسب الى العرب ويقول :

---

(١) معجم الادباء ج ١ ص ٣٢٢ .

انـت عنـدي عربـي ليس في ذاك كـلام
عربـي عربـي عربـي والسـلام
شعر اجفانك قيصوم وشيـح وثمـام

لقد عبر الشعر عن بعض اتجاهات الشعوبية من تفاخـر بالنسب الفارسي ومن تذكر للامجاد القديمة، ومن تنديد بالعرب عن طريق التهجم على العرب القدامى، ومن دعوة الى اعادة الملـك الى الفرس، وهي صور قصيرة عاطفية يقدمها الشعر، ولكننا نجد التفكير الشعوبي اوضح واشمل في الاثـار الاخرى .

في النثـر

ارادت الشعوبية ان تبين ان العرب كانوا مجموعة قبائـل لا تربطها رابطة وليس لها من الحضارة نصيب، وانهم كانوا فـي حالة سمجة من الهمجية والتخلف، في حين ان الشعوب الاخرى كالفرس والروم كانوا اصحاب حضارات راسخة. قالت الشعوبية «للامم كلها من الاعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بهـا وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات. ولم يكن للعـرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا اثر فـي فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم» (١) .

وقال الجيهاني الشعوبي «ليس للعرب كتـاب اقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ولا ما يجري في مصالـح الابدان ويدخل في خواص الانفس» (٢) . وكأنهم خلـو من كـل انتاج فكري يذكر. وذهبوا الى ان اسلوب معيشتهم وحياتهـم تكشف عن هذه الحالة البدائية، وعبروا عن ذلك بلهجة عنيفـة. يقول الجيهاني ان العرب «يأكلون اليرابيع والضباب والجـرذان

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤٠٥ .

(٢) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٩ .

والحيات، ويتعاورون ويتساورون ، ويتهاجون ويتفاحشون»(١).

ثم ان اساليب قتالهم ومعداتهم الحربية كانت بسيطة، ولم تكن لهم معرفة بالتعبئة او بادوات الحرب المتقدمة ، وقد فصل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في ذكر هجمات الشعوبية ورد على تهجمهم بقوة (٢) .

وحاولت الشعوبية ان تنفي صفة الامة عن العرب، فلم يدخلوهم ضمن الشعوب، كما ان اطلاقهم للفظة (الشعوبية) على انفسهم يشعر بانهم قصروا مفهوم الشعوب على انفسهم، واما العرب في زعمهم فقبائل متفرقة متنازعة، والقبلية قرينة البداوة وهي بعيدة عن الحضارة بعد العرب عن الحياة المدنية، في حين ان الشعوب ترتبط بالحضارة، وفسروا الاية الكريمة «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. الاية» بهذا المعنى (٣) .

وحاولت الشعوبية، بعد ذلك ان تقطع اوصال التاريخ العربي

---

(١) ن.م. ص ٧٨ ــ ٨٠ . وكانت بعض التعليقات حافلة بالسخرية . جاء في البخلاء « قال مديني لاعرابي : اي شيء تدعون واي شيء تاكلون ؟ قال : ناكل ما دب ودرج الا أم حبين . قال المديني : لتهن ام حبين العافية » البخلاء ص ٢٣٣ .

(٢) تتلخص هجمات الشعوبية على اسلحة العرب ومعداتهم في الجاهلية بانها بسيطة فهم لا يعرفون العرادة والمجانيق والدبابات ولا يعرفون استعمال الخنادق ولم تكن عندهم طبول او بنود او جواشن او خوذ ولم يعرفوا الزرق بالنفط والنيران ، كما ان طرقهم في القتال وفي التعبئة بدائية. انظر البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦ــ١٨ .

(٣) يقول ابن قتيبة : « وبلغني ان رجلا من العجم احتج بقول الله (تعالى) « يا ايها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى . الاية » وقال : الشعوب من العجم والقبائل من العرب والمقدم افضل من الآخر . وقد كنت ارى اهل التسوية يحتجون بذلك» .

وان تعزلهم عن ماضيهم او ان تطويه، لتظهر بأنهم شعب حديث النشأة، وارادوا نفي الاتصال الثقافي في تاريخهم بهذا الهجوم المركز على فترة قبل الاسلام. ولكن هذه المحاولة المتسترة للفصل بين عرب قبل الاسلام وبعده لم تنطل على العرب، لان الكيان العربي موصول بالاصول، ولان الشعوبية في اندفاعها لم تقف عند فترة معينة كما اشرنا .

ورد انصار العروبة هذه التهم: فقد دافعوا عن حياة الترحل وراوا فيها الفضيلة والحرية. «قالوا (اي العرب) لنكن محكمين في الارض ونسكن حيث نشاء، اصلح من غير ذلك» . ولاحظوا في الترحل دليلا على نبل الهمة وشدة الانفة والحمية والهرب من الذل «فسكنوا البر الافيح الذي لا يخافون فيه حصرا ولا منازلة» ولما كانت الارضين معرضة للافات، فالترحل يورث صحة الامزجة وقوة الفطن «فان العقول والاراء تتولد من حيث تولد الهواء. فآثرت العرب سكنى البوادي والحلول بالبيداء» وهذا يكسبهم مزايا جيدة، «فهم اقوى الناس همما واشدهم احلاما واصحهم اجساما واعزهم جارا واحماهم ذمارا. واجودهم فطنا، لما اكسبهم اياه صفاء الجو ونقاء الفضاء» (١) وبهذا ربطوا بين البيئة وبين العادات والاخلاق ومع ذلك، فسكنى البادية تحتاج الى جهد وقوة، والى صبر لتحمل شظف العيش والمشقة في البادية (٢) .

وبعد هذا يؤكد انصار العروبة ان العرب كانوا متحضرين حتى في البادية. و«مما يدل على تحضرهم في باديتهم وتبديهم في

(١) المسعودي (ط. باريس) ج ٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢) يقول الجاحظ انه قد « يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في امة من الامم ولا في ناحية من النواحي ،وان احدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة ، وحتى يعتصم بشده معاقد الازار وينزع عمامته من راسه ليشد بها بطنه، وانما عمامته تاجه » البخلاءص١٠٢.

تحضرهم، وتحليهم باشرف احوال الامرين اسواقهم التي لهم في الجاهلية مثل دومة الجندل» . وهم بعد ذلك « في بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة احسن العادات ، ومن البادية اطهر الاخلاق» (١) .

واذا كان العرب يعتزون بانسابهم، فان الشعوبية هاجمت ما لدى العرب منها، وما يعتزون به من سلاسلها، وادعوا انها انساب مدخولة او منحولة (٢) وذهبوا مقابل ذلك الى انتحال انساب وهمية للعجم ليفخروا بها. ادعى الشعوبية ان اسحق ابو العجم، وان امه سارة حرة، بينما اسماعيل ابو العرب، وامه هاجر وهي أمَة، وسموا العجم «بني الاحرار» والعرب « بني اللخناء» . بضوء هذا الادعاء . قال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولاخباء ولاعك وهمذان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الاحرار اوطان
ارض تبنى بها كسرى مناسكه فما بها من بني اللخناءانسان

ويرد ابن قتيبة على هذا التخليط في اللغة، وعلى غرابة الادعاء في النسب الى سارة ويؤكد زيفه (٣) .

وتطرف الشعوبية في وجهتهم هذه ليخرجوا الى نظرة عنصرية غريبة تؤكد نقاء الاصول كما في قول ابن غرسية « انهم الصهب الشهب. اساورة اكاسرة . جبابرة قياصرة. من القوم الملس الادم. لم تعرق فيهم الاقباط ولا الانباط، حسب حري

---

(١) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٣ .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ ، وص ٤٠٩، وص ٤٠٧ .

(٣) يقول ابن قتيبة « واعجب من هذا ادعاؤهم الى اسحق بن ابراهيم (ص) وفخرهم على العرب بانهم لسارة الحرة ، وان اسماعيل اب العرب لهاجر وهي أمة .. » رسائل البلغاء ص ٣٥٢ ، وانظر نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة ص ٢٤٧ .

ونسب سري » (١) .

وكان العرب يعتزون بشعرهم وبفصاحتهم، وبقابلياتهم الخطابية، فجاءت الشعوبية تركز هجومها عليها وتتخذ وسائل متعددة للطعن بها او لتشويهها. فقد دلسوا في الشعر العربي، خاصة الجاهلي، وقام بعضهم، مثل حماد الراوية وخلف الاحمر بوضع القصائد والاشعار ينسبونها للجاهليين ليشككوا في قيمة الشعر الجاهلي جملة وفي اصالته، وعبثوا بالروايات واثاروا الشكوك حولها ونجحوا في ذلك الى حد كبير. يقول السيد المرتضى «وكان حماد مشهورا بالكذب في الرواية وعمل الشعر واضافته الى الشعراء المتقدمين ودسه في اشعارهم، حتى ان كثيرا من الرواة قالوا : قد افسد حماد الشعر لانه كان رجلا يقدر على صنعته، فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم» (٢) .

وركزت الشعوبية هجومها على الخطابة العربية، فنددت بأساليبها وسخرت من استعمال القناة والقضيب والعصا من قبل الخطباء العرب، وحاولت من وراء ذلك ان تظهر فصاحة الخطباء بمظهر البساطة البدوية. وكان هجوم الشعوبية هنا ينصب على ناحية حساسة في اعتزاز العرب بقابلياتهم، ولذا جعل الجاحظ من عرضه لهجمات الشعوبية على الخطابة ورده عليها محور رده على الشعوبية، وسمي القسم الخاص بذلك في كتاب البيان والتبيين باسم (كتاب العصا) (٣) .

---

(١) نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة ، ص ٢٤٧ .

(٢) الامالي ج ١ ص ١٣٢ ، وانظر الاغاني (ط . دار الكتب) ج٦ ص ٨٩ وص ٧٤ ، وج ٤ ص ٩٢ .

(٣) فصل الجاحظ في كتابه (العصا) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥-١٢٤، في استعراض هجمات الشعوبية على الخطابة العربية وادواتها . ومما قاله « وقد طعنت الشعوبية على اخذ العرب في خطبها المخصرةوالقناة=

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية، وهم يدركون انها وعـــاء الثقافة العربية، وانها في حيويتها ومرونتها استطاعت ان تصبح لغـة الثقافة بعد ان صارت لغة السياسة. فالشعوبية تريـــد مكافحة العربية، وتريد اظهار مزايا اللغات الاخرى، الفارسيــة خاصة. ويبدو ان هذا الموقف استهدف حث اصحاب تلك اللغات على العودة اليها في انتاجهم الثقافي بعد ان اكتسحتها العربية في هذا الميدان. وكان هذا تمهيدا مبكرا لاستعمال تلك اللغات فــي الكتابة، فنحن نعرف ان الفرس بدأوا يستعملون الفارسيةالجديدة لنظم الشعر في القرن الرابع الهجري، واخذوا يكتبون بهـــا وينظمون بها خاصة في ظل الامارة السامانية في خراسان ومـــا وراء النهر. وظهرت في هذا الانتاج الادبي نبرة فارسية واضحة، وذهب بعضهم الى ترجمة بعض المؤلفات العربية الى الفارسيـــة كتاريخ الطبري، وكتواريخ بعض المدن مثل تاريخ قم للقمي وتاريخ بخارى للنرسخي. وافتى بعضهم بجواز الصلاة بالفارسية .

ولئن كان في العودة الى اللغات المحلية تعبير طبيعي عـــن وعي الشعوب الاخرى وتأكيد لذاتها، فان الهجوم علـى العربيـة والتقليل من شأنها اثار العرب واثار بعض المسلمين من غير العرب لان العربية لغة القرآن، ولانها اللغة العامة للثقافة خلال عصـــور. ولذا انبرى الكتاب كالجاحظ والثعالبي وغيرهما للدفاع عن هذه اللغة ولاظهار محاسنها وتأكيد مزاياها بحرارة واندفاع .

= والقضيب والاتكاء والاعتماد على القوس والخد في الارض والاشارة بالقضيب بلام مستكبرة » (البيان والتبيين ج ١ ص ٣٨٣). وقال «وبمطاعنهم على خطبـاء العرب باخذ المخصرة عند مناقلـة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى والمنثور الذي لم يقف ، وبالارجاز عند المتح وعند مجاناة الخصـم وساعـة المشاولة وفي نفس المجادلة والمحاورة ، وكذلك الاسجاع عند المناظرة والمفاخرة واستعمال المنثور في خطب الحمالة وفـي مقامـات الصلح ..» ج٣ ص ٦ .

وكان العرب يعتزون بلغة الشعر الرائع، ولغة الخطيب البليغة، ولغة الثقافة، وهي لغة باركها الله بالقرآن (١). والعربية تتميز بسعتها، وبتصاريف كلامها وبمآخذها البديعة فياستعاراتها وبغرائب تصرفها في اختصاراتها ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها (٢).

لذا رأى بعضهم في تهجم الشعوبية اثر عجمة ومرض (٣). والعربية بعد هذا، النسب الاول للعرب، والصفة الاولى التي تحدد العروبة، وتميز اصحابها عن الاعاجم، ومن المنتظر ان يؤدي تطرف الشعوبية الى اندفاع العرب في تمجيدها فاعتبروها اشرف اللغات واسناها.

---

(١) يقول الثعالبي « من هداه الله للاسلام .. اعتقد ان العربية في اللغات والالسنة والاقبال على تفهمها من الديانة » . ويقول « ولما شرفها الله عز اسمه وعظمها ورفع خطرها واوصى بها الى خير خلقه » . (فقه اللغة ط . القاهرة ١٢٨٤ ص ٣) .

(٢) انظر التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ حيث يقول « فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، اعني الفرج في كلماتها ، والفناء الذي نجده في حروفها والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في امثلتها والمساواة التي لا تجحد في ابنيتها » .

(٣) الانباري ـ الاضداد ص ٢ .

وجهـــة العرب

وهاجمت الشعوبية الثقافة العربية بصورة عامـــة، وقـــد المحنا الى محاولتهم احياء الثقافة الفارسية القديمة وتشجيعـها على حساب الثقافة العربية، وبذلوا كل جهد لتقليل شأن الثقافة العربية، واظهارها غير وافية بحاجات العصر الجديـــد، العصر العباسي، ولم يكن ذلك الا رد فعل لتفوقها وخوفا مـــن ان يزول التراث القديم . ولا يخفي ان الثقافة الفارسية القديمة ترتبـط ببيئة غير اسلامية، وبنظرة تختلف بصورة اساسية عن النظـــرة العربية الاسلامية، وفي هذا التقاء الشعوبية والزندقة .

وكان رد الفعل قويا واضحا في هذا الصدد. اذ نشط العرب للعناية بتراثهم الثقافي كله، فقاموا بجمع الشعر العربـي القديم يستعينون به في التفسير، ويتخذون منه شواهد في النحـو ، ويجدون فيه سجلا بانساب العرب وايامهم ومآثرهم، ولدينا في مفضليات الضبي وفي حماسة ابي تمام والبحتري امثلة عـــلى ذلك. كما نرى العرب يعنون بجمع الاثار الادبية من امثال وخطب ونثر اضافة الى الشعر في كتب اخرى لييسروا تناولها وليقدموا صورة حية للبلاغة العربية وللتراث الادبي كما ترى في كتـــاب البيان والتبيين للجاحظ .

وحـدة الثقافة العربية

ولئن حاولت الشعوبية بتر الجذور الثقافية وفصل ماضي العرب الثقافي عن حاضرهم، فان العرب ادركوا انهم اصحـــاب تراث عريق لا كما تزعم الشعوبية . وهكذا نجد في مؤلفات القرن الثالثالهجري محاولات لاظهار الاتصال الثقافي ولتأكيد الاستمرار والوحدة في الثقافة العربية، عن طريق جمع الاثار الادبيـــة العربية قبل الاسلام وبعده في مؤلفات واحدة كما ترى في اثـار الجاحظ وابن قتيبة (خاصة كتاب المعارف)، وهـــذا التحسس بالاتصال الثقافي نراه جليا لاول مرة لدى العرب (١) .

ومع ان الشعوبية اتخذت نظرة ضيقة حين مجدت الثقافات الاعجمية ورات فيها الكفاية، وقاومت الثقافة العربية، فان موقف حملة الثقافة العربية الاسلامية بقي موقفا مفتوحا يرحب بما هو حسن في الثقافات الاخرى ويأبى تجاهلها، بل انهم ضمنـــوا مؤلفاتهم ما راق لهم منها وادخلوه في الاطار الثقافي العربـــي الاسلامي. ولعل نظرة الى (ادب الكاتب) لابن قتيبة تشعرك بهذا الموقف الرحب. وكانت هذه النظرة الايجابية من اسباب ازدهـار الثقافة العربية وتفوقها وانتصارها الاكيد على محاولات الشعوبية المذكورة .

دور العرب في التاريخ

هذا الهجوم على الثقافة العربية يخفي وراءه محاولة لطمس الدور الحضاري للعرب. وهنا أبين ان تاريخ العرب في الاســلام يتخلله تياران أساسيان، يتلازمان حينا، ويسير كل في طريقـه حينا اخر. فهناك انتشار العربية وحركة التعريب الاجتماعـــي

---

(١) انظر مقدمة كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣ ـ ٦ .

والثقافي التي وسعت افاق العربية وجعلت منها لغـــة الثقافة والحضارة الجديدة. وتراجعت الديانات الاخرى امام الاســـلام بصورة سلمية تلقائية، كما ضمرت الثقافات الاخرى امام الثقافة العربية الاسلامية. وقد سار التياران بقوة، وكانا متماسكين في بعض البلاد مثل شمال الجزيرة العربية واقطار شمالي افريقية، وسار كل في طريقه كانتشار الاسلام في بلاد فارس وجهات اخر من اسيا وافريقية. ولكن الطابع الغالب في فترتنا هذه هو تلازم التيارين وتطابقهما في طريق رحب وبقوة دافعة، وقد ســـارا بقوة التفوق الذاتي دون فرض او اكراه. ومن هنا كان رعـــب الشعوبيين، اذ تراجعت الثقافات القديمة وتقلص ظل الديانـــات المجوسية امام الاسلام والعروبة بسرعة تجلب الانتباه، وتوحـــي بأن طمس هذه الثقافات والديانات او ذوبانها امر حتمي لا يتطلب الا مزيدا من الوقت. ولما كان العرب محور هذا النشاط، فقـــد ركز الشعوبيون هجومهم عليهـــم، فحاولـــوا أن يصوروا عصر الجاهلية بصورة الهمجية والافلاس الحضاري، وان ينـــــددوا بآثارها الثقافية . ثم حاولوا ان ينكروا دور العرب بعد ذلك، وان يؤكدوا ان لا فضل للعرب في الاسلام ولا دور لهم يوجب ثناء او يشعر بفضل. وهم وان اسلموا قبل غيرهم، الا ان الاسلام جـــاء للجميع. ثم يعودون بعد هذا الى وجهة غريبة ليقولوا انه أن كان محمد (ص) وبعض الانبياء قبله من العرب، فان الانبياء الذيـــن ظهروا من شعوب اخرى اكثر عددا، فليس لهم اذن ان يفخـــروا بالرسول العربي. وهذا موقف لا يخلو من ارتباك وتناقض .

وجاء موقف العرب واضحا ينم عن ادراك عميق للمشكـــل. فقد كتبوا في التاريخ العربي (الاسلامي) بروح جدية وبتأمل ذاتي، وانتجوا من المؤلفات التاريخية ما يدهشك بكثرته وسعته، بـــل انك تحار امام هذا العدد الكبير من المؤلفات التاريخية، وامـــام سعة نطاقها حين شملت مختلف فئات المجتمع ومختلف فعالياتهم. وحين تتأمل هذا الوضع ترى ان شعورهم بدورهم التاريخي عامل

اساسي في ذلك .

وترى بعض هذه المؤلفات ينصب بجلاء على اظهار هذا الدور. فحين تقرأ فتوح البلدان للبلاذري مثلا، تدرك بأن هذا المؤرخ الذي كتب في القرن الثالث، انما اراد ان يظهر ذلك الدور الضخم الذي قام به العرب في نشر راية الاسلام وفي تكوين الدولة الاسلامية، وترى ان لهم فضل التقدم في حمل رسالة الاسلام الى الشعوب الاخـرى .

وحين تهاجم الشعوبية العرب وتحاول رسم اسطورة مربكة للانساب، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ليظهر متانة الانساب العربية، وليبين دور العرب في التاريخ الاسلامي عامة. انظر الى (انساب الاشراف للبلاذري) وتأمل محتوياته، تر ان هيكل هـذا التاريخ يستند الى الانساب العربية، وتشعر بأن العرب كانـوا محور التاريخ الاسلامي . وهو في خلال عرضه لهذا التاريخ يكشف لك عن مصدر الحيوية فيه، وعن مركز القوة والثقل في سيره .

وتجد في كتابات بعض المؤرخين مـا يظهر الدورالحضاري للعرب في الاسلام، وما يكشف انحراف الشعوبية في تعصبهـا وبعدها عن الحقيقة. انت ترى في صحائفـهـم ان للعـرب دورا ثقافيا حضاريا وانهم حملة رسالة حضارية الى البشرية . فحين تطالع تاريخ اليعقوبي تشعر بأن العرب ورثوا الحضارات السابقة، وان لهم جذورا حضارية من العصر الجاهلي، وانهم نشطـوا بالاسلام واخذوا من تلك الحضارات ما يناسبهم ليزيدوا في غنى ثقافتهم وفي توسيع افق الحضارة الجديدة. وبينما يدعـو الشعوبي الى تمجيد حضارة فارسية قديمة، يعرض اليعقوبـي وابن قتيبة واضرابهما الى الافاق الرحيبة للحضارة العربيـة الاسلامية، ولا يرونها حضارة خاصة بأمة، وليست هـي للعرب وحدهم، بل انها رسالة العرب (ومن شارك معهم) الـى الشعوب الاخرى .

وكان من اثر التحدي الشعوبي،ان التفت انصار العروبـة

الى الاستمرار والتماسك في تاريخ العرب، قبل الاسلام وبعده. فنجد البعض يعني بتاريخ العرب قبل الاسلام ويذكر دولهم وايامهم، ولئن وثب العرب وثبتهم الكبرى بالاسلام، وانتشروا في ارجاء المعمورة، وقادوا غيرهم من الشعوب، فانهم كانت لهم دول وكيانات سياسية. وكمثل على ذلك نذكر تاريخ العرب قبل الاسلام للاصمعي. ولقد خرج العرب بالاسلام من ظلام الوثنية، وسموا على الجاهلية (من الجهل)، ولكن الاسلام لم يبطل كل المفاهيم والاخلاق العربية بل ابقى بعضها، ووجد من يذكر ما ابقاه الاسلام مثل ابن حبيب في كتابه (المحبر) .

رابطة اللغة والثقافة

لقد تغافلت الشعوبية عن التطور الكبير في حياة العرب من النواحي الاجتماعية والفكرية، فقد تمثلت بالاسلام الروح العربية السمحاء وتراجعت المفاهيم القبلية، بل لقد نمت فكرة العروبة التي استندت الى اساس ثقافي حضاري، ووجدت في العربية لغة وثقافة، رابطة مشتركة، كما رأت في الاسلام رابطتها مع بقية الشعوب المسلمة. ولا يخفى ان اللغة العربية منطلق هذه النظرة، وان كلمة عربي اطلقت مبدئيا على الناطق بهذه اللغة، ويقابل ذلك الاعجمي الذي يتكلم بلغة اخرى. وترد لفظة عربي في القرآن نسبة الى اللغة العربية بينما ترد لفظة اعجمي نسبة الى الالسنة الاخرى (١). فلم يكن هناك محل لنظرة عنصرية لدى العرب .

(١) على سبيل المثال الايات «كتاب فصلت اياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون» (فصلت، ٢)، «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم» (ابراهيم، ٤)» و «لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين» (النحل ١٠٣) ، و «ولو نزلناه على بعض الاعجميين فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنون» (الشعراء ، ١٩٨)» و «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» (الشعراء، ١٩٥) .

وبازدهار الثقافة العربية اصبحت الرابطة اللغوية الثقافية رابطة حية، واخذت الفكرة تتبلور ومفهوم الامة العربية يكتسب صورة واضحة، اما فكرة النسب القبلي، فلم يكن لها مفهوم عملي خارج الفخذ والقبيلة، ولم تكن تنطوي على نظرة شاملة، بل انها مفهوم ضيق تراجع امام النظرة الواسعة التي تكونت في الفترة الاسلامية وانت تجد في بعض المؤلفات تعبيرا واضحا عن هذا المفهـــــوم للأمة والنسب .

فهذا الجاحظ يتحدث عــن عروبة اسماعيل (ع) ويقــول « وقد جعل اسماعيل ، وهو ابن اعجميين عربيا ، لان الله(تعالى) فتق لسانه بالعربية المبينة على غيــر التلقين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ... ثم حباه من طبائعهم (اي العرب) ومنحه من اخلاقهم وشمائلهم ،وطبعه مــن كرمهم وانفتهم وهممهم ، على اكرمهــا واسناهـــا واشرفهـــا واعلاهــا » (١) . وفي هذا توضيح للاسس الثقافية للعروبــة ، ولمفهوم الروابط التي تجعل مــن العرب امة .

وحين ينكــر البعض وحدة العرب محتجا بوجــود انساب مختلفــة كالقحطانية والعدنانية يرد الجاحظ ويقول : « فـــان قلت : فكيف كــان اولادهمـــا (قحطـــان وعدنان) جميعـــا عربا مع اختلاف الابوة ، قلنـــا : ان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغـــة والشمائل والهمة ، وفي الانفة والحمية، وفي الاخلاق والسجية، فسبكوا سبكا واحدا وافرغوا افراغاواحدا وكان القالب واحد ، تشابهت الاجزاء، وتناسبت الاخلاط حتـــى صار ذلك اشد تشابها فـــي بـــاب الاعـــم والاخـــص ، وفـــي باب الوفاق والمباينة من بعض الارحام . وجرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الاسباب ولادة اخرى » (٢) . وانـــت ترى بوضوح ان الجاحظ لا يعتبر النسب او العنصر اساس تكوين

---

(١) الجاحظ ـ ثلاث رسائل، باعتناء فان فلوتن (ليدن ١٩٠٢) ص ١٨ـ١٩ .

(٢) ن. م. ص ٥ـ٦ .

الامة ، بل يرى في اللغة والطباع والسجايا ، وفي البيئة الجغرافية المقومات التي تكوّن الامة .

وطبيعي ان يكون هذا المفهوم اكثر ثباتا وابعد اثرا من المفهوم العنصري الذي اتخذته الشعوبية ، وان يلعب دوره في توسع العروبة وفي صمودها امام النظرة الضيقة التي تحدتها .

وهذا لا يعني ان فكرة النسب زالت ، او انها كانت مهملة، ولكنها كانت اجتماعية اذ كان للنسب دوره في تحديد المنزلة الاجتماعية .

ويبدو انه رغم المساواة الكلية في المجتمع العباسي ، فان النسب بقي له اثره بين الناس من مختلف الشعوب . فهذا ابو مسلم الخراساني ممثل العباسيين في خراسان ، ومنفذ ثورتهم، ادعى لنفسه نسبا عربيا رفيعا ليكتسب شرفا بنظر الناس. وحين ضعف العرب سياسيا بقيت لهم منزلة اجتماعية . فعضد الدولة، اقوى امراء البويهيين ، كلف الصابي بكتابة « اخبار الدولة البويهية » واصر عليه ان يضع لآل بويه نسبا عربيا ، فوافق الصابي لينقذ نفسه من الموت ، ولكنه مع ذلك نسب البويهيين الى قبيلة مغمورة في العرب ، الى بني ضبّة .

تطور العرب الاجتماعي

وهكذا لم يتخذ العرب نظرة عنصرية رغم مناداة الشعوبية بها ، بل انهم بمرور الزمن بعدوا عن النظرة القبلية . فقد شهدت الفترة الاخيرة من العصر الاموي بعض الحدة في العصبية بشكل يدل ظاهره على قوتها . ولكن واقع تطور المجتمع العربي يشعر بأن القبلية كانت في مرحلة ضعف وتراجع، وكان ظهورها بالشكل العنيف المربك الذي نراه في خراسان او الاندلس دالا على تدهورها الى فوضى مريعة ، حتى اذا مرت فترة قصيرة من

العصر العباسي ادركنا هذا الضعف والانحلال . ومن الواضح ان الاتجاهات الحزبية هي التي اكتسحت الميدان وهي التي قوضت السلطان الاموي ، وهذا يدل على انها مزقت العصبية القبلية، وكانت تعبيرا عن التحول الاجتماعي ، ولم يكن هذا التحول حدثا بسيطا او طارئا بل كان نتيجة تطور طويل يتصل بالنظرة العربية التي تكونت بالاسلام والتي تناقض النظرة القبلية ، ويتصل بانتقال القبائل الى حياة استقرار حضرية وبعدها عن حياة البداوة ، وتغير اسلوب معيشتها وتحول المجتمعات القبلية الى مراكز حضرية نشطة .

ومن مظاهر هذا التحول ان القبائل لم تعد اساس المجتمع في الحواضر العربية كالبصرة والكوفة كما كانت الحال في البداية ، ولم نعد نشعر ان المجتمع العربي مجرد وحدات قبلية . ففي البداية كان التنظيم القبلي وراء التنظيم العسكري وعماد الجيش ، كما كان دليل المكانة الاجتماعية . ولهذا ايضا كانت الادارة تعتمد الى حد كبير على الاشراف من قريش ومن القبائل الكبيرة الاخرى . ولكن تضعضع القبلية ادى الى ضعف خطير في الجيش ، وادى الى تحول في الادارة نحو المركزية ، فلم تعد الادارة كما كانت مثلا في ايام زياد بن ابيه تعتمد على مساندة ومشورة شيوخ القبائل وتعاونهم ، بل تستند الى السلطان المركزي والى الحاميات العسكرية ، وهي مثلا شامية في العراق منذ ايام الحجاج .

وحين كانت القبائل اساس التنظيم الاجتماعي ، كان المسلمون الجدد من غير العرب جماعات وافرادا ، ينتسبون بالولاء الى قبيلة ما ليكون لهم محل في المخطط الاجتماعي. وهذا ولاء ينطوي على فكرة الحلف ، وان لم يكن حلفا متكافئا. ولما تضعضع الاساس القبلي في المجتمع ، لم يعد هذا الولاء ضروريا ، وهذا واضح منذ اواخر العصر الاموي، وطبيعي ان لا يبقى محل لهذا النوع من الولاء في العصر العباسي . ومن

المنتظر او المفهوم على الاقل ، ان يسخر البعض من هذا الولاء في العصر العباسي كقول بشار :

اصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

بل ان بعضهم كان يحاول افساد الولاء ويدعو الموالي الى الانتفاء منه (١) .

ونرى جل الموالي في هذا العصر موالي عتاقة ، او سلالة موال سابقين ، ونرى بعض الكتاب يعتبر هذا النوع من الولاء دخولا في المجتمع العربي وانتسابا اليه (٢) ، وفي هذا توسيع لاطار المجتمع العربي على اساس ثقافي لا اجتماعي ،وليس غريبا بعد هذا ان لا نسمع كثيرا عن الموالي او عن مشكلة للموالي في العصر العباسي .

العرب والعجم

لقد كانت المقابلة بين العرب والموالي في الفترة الاموية، فصارت الان بين العرب والعجم ، وهذا يتضح بصورة خاصة

---

(١) جاء في الاغاني «وقف رجل من يزيد، شريف، على بشار فقال له : يا بشار قد افسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا ترغبهم في الرجوع الى اصولهم وترك الولاء» ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) يقول الجاحظ «ان الموالي بالعرب اشبه واليهم اقرب وبهم امس لان السنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني، لانهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة، وهذا تاويل قوله (ع) : «مولى القوم منهم ومولى القوم من انفسهم». والولاء لحمة كلحمة النسب، وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم.. وبذلك النسب حرمت الصدقة على بني هاشم فان النبي (ص) اجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم» . الجاحظ ـ ثلاث رسائل، نشر فان فلوتن ص ٦ـ٧ .

حين ننظر الى صفحة اخرى تمثل فيها الصراع بين الشعوبية والعرب ، وهي صفحة الحديث والآثار . وهنا نجد عصبية للعجم ومحاولة تفضيلهم في الاسلام وعلى لسان نبيه واصحابه. ولا حاجة بنا للقول انهم لجأوا للوضع في الحديث والى وضع اقوال على لسان بعض الصحابة والتابعين للتعبير عن عصبيتهم للاعجمية . ومن الامثلة على ذلك ، ما ينسب للرسول (ص) من ان الاعاجم ذكرت عنه ، فقال « لأنا بهم اوثق مني بكم » او « لأنا ببعضهم أوثق مني ببعضكم » . او ما ينسب للرسول من قول ، لا تسبوا فارسا فما سبه احد الا انتقم الله منه عاجلا او آجلا » ، او ما ينسب اليه « سياتي ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها الا دمشق » . ووضعت الاحاديث حول ابي حنيفة مثل « لو كان العلم معلقا عند الثريا لتناوله رجل من فارس » او ما ينسب للرسول « ان آدم افتخر بي وانا افتخر برجل من امتي اسمه نعمان ، وكنيته ابو حنيفة ، وهو سراج امتي » .

ورووا ان الرسول تلا الآية « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم » فقالوا من يستبدل بنا ، فضرب (ص) على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده ، لو كان الايمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس » . وقد اتخذوا من سلمان (رضي) كما اتخذوا من أبي حنيفة (رضي) مجالا للفخر وللعصبية ورددوا الحديث « سلمان منا اهل البيت » (١).

ومن الطبيعي ان يرد العرب على هذه الادعاءات بنفس الاسلوب ، وان تروى الاحاديث والاقوال في الدفاع عن العرب او تمجيدهم . روي عن الرسول (ص) « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي » ، وروي عنه (ص) « احبوا العرب

---

(١) انظر ضحى الاسلام لاحمد امين (ط. ٥) ص ٧٦-٧٧ .

لثلاث : لاني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنة عربي » : ورووا ان الرسول (ص) قال : « اذا ذلّ العرب ذل الاسلام » : وانه قال : « من ابغض العرب ابغضه الله » ،وانه قال : « حب العرب ايمان وبغضهم كفر » . ورووا ان الرسول (ص) قال لسلمان الفارسي : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك . قال قلت يا رسول الله كيف ابغضك وبك هداني الله؟ قال : لا تبغض العرب فتبغضني » (١) .

ومن هذا يتضح ان الشعوبية لم تترك سبيلا لتاكيد عصبيتها ولمهاجمة العرب الا سلكته مما اضطر انصار العروبة الى استخدام اسلحة مقابلة .

(١) ن. م ـ ص ٧٨، بلوغ الارب ج١ ص ١٦٣. رسائل البلغاء ص ٣٧٤ـ٥.

موقف الشعوبية من القيم العربية الاسلامية

ونفذت الشعوبيـة بعيدا حيـن هاجمـت القيم العربيـة والفضائل الخلقيـة التي تتمثل في مفهوم المروءة عندهم ، بـل وتناولوا المفاهيم الاسلامية احيانا ، ونسبوا الى العرب مثالـب فرديـة حاولوا اظهارهـا بمظهـر صفات عامة (١) . فقد هاجمت الشعوبيـة فكرة الشرف عند العرب وطعنت في نظرتهم للمـرأة وفي موقفهم منهـا (٢) وتهجمت على فروسيـة العـرب وعلى مفاهيمهم للشجاعـة في حملاتهم على اساليب قتالها واسلحتها. وكـان العرب يعتزون بالكرم والقِرى، فركز الشعوبيون هجومهم على مفهوم العرب للقِرى وحاولوا تشويه روعته وما فيه من بذل

(١) يفهم من الجاحظ أن الشعوبية استفادت من المهاجاة بين العرب احيانـا اذ يقول «وتهجي اسد بأكل الكلاب. والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلـة قد اتى قبيحا الزمت ذلك القبيلة كلها، كما تمدح القبيلة بفعل جميـل وان لم يكن ذلك الا لواحد منها، فتهجو قريشا بالسخيـة وعبـد القيس بالتمر..» البخلاء ص ٢١٥ .

(٢) انظر العقد الفريد ج٣ ص ٢٦٨، التوحيدي في الامتاع والمؤانسـة ج ١ ص ٩٢ ــ ٩٣ .

وتضحيـــة وبالغـــوا في التشنيع به ، وانت تجد تفاصيل كثيـــرة لذلك في كتاب البخلاء للجاحظ (١) . وذهبوا الى ابعد من ذلك، فكتبوا الرسائل في البخل ، ولسهل بن هارون باع طويل فـــي ذلك (٢)، وحاولوا ان يحولوا المأثرة الى منقصة ، وان يجعلوا البذل مذمة وتخليطـــا . وقد انبرى الكتاب العرب للرد عليهم . ومـــن اروع مـــا وصلنـــا تلـــك الصور الساخرة المتعة التـــي عرضهـــا الجاحظ في كتابه (البخلاء) والتي اراد بهـــا الرد على سهل بن هارون ، وانصار البخل ، ويكفي ان انقل اليك الفقرة التالية :

« قال تمامة : لـــم ار الديك في بلدة قط الا وهو لاقـــط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظهـــا قدام الدجاجة ، الا ديكـــة مرو، فاني رأيت ديكـــة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرهـــا من الحب، قال ، فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر المـــاء. فمن ثم عم جميع حيواناتهم » (٣) .

ان مطالعتك لكتاب البخلاء تنقلك من السخرية الى الجد، ومن انكار البخل الى تحليل شبه فلسفي يبيـــن لـــك ان البخـــل طبع متأصل في نفوس الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعا قويـــا عـــن الكـــــرم .

ولم تكتف الشعوبيـــة بمهاجمة الفضائل العربية ، بل راحت تعمل على تفسيخ القيم الخلقيـــة العربية الاسلامية ، فاكثروا من المجون والشراب ، وجاهروا بالخلاعـــة وبالانحراف الجنســـي واعتبروا ذلـــك نوعا مـــن التحرر ومثلا في الظرف . وانت تجد في كتاب الاغاني قصصا غريبة عـــن تحللهم الخلقي والديني وعن دورهم في افساد الاخلاق . ويمكنك ان تقرأ الاخبار عن سلوك يحيى بن زياد ومطيع بن ايـــاس وحماد عجرد وبشار كأمثلة على

---

(١) انظر الجاحظ ـ البخلاء ص ٢١٨ .

(٢) يقول ابن النديم «وله رسائل في البخل» ص ١٧٤ .

(٣) الجاحظ ـ البخلاء ص ٣٢ .

ذلـك (١). ويسمي ابو نواس جماعـة الزنادقـة الذين ذكرهـم في هجائه لابان اللاحقي ب « العصبة المجان » ، وقد انتبه البعض الى هذا الخطـر وحاولوا مجابهته . جاء في الاغاني . « سالت ابـا عبيدة عن السبب الذي من أجلـه نهى المهدي بشارا عـن ذكـر النسـاء ، قال : كـان اول استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبدالله الاكبـر ومالك بن دينار : ما شيء ادعى لاهل هذه المدينـة الى الفسق مـن اشعار هـذا الاعمى» (٢) . وجاء عن عبدالكريم بن ابـي العوجاء « كـان عبد الكريـم يفسد الاحداث، فقال له عمرو بن عبيد : قـد بلغنـي انك تخلو بالحدث من احداثنا فتفسده وتستنزله وتدخلـه فـي دينـك » (٣) .

من الواضح ان الشعوبيـة والزنادقة اتخذوا وجهة خلقية تخالف القيم العربية الاسلامية ، وحاولوا اظهارهـا بمظاهر خلابة، كالتظاهـر بالظرف ، ولم يكـن ذلك الا تمويها ، ولكنه انطلـى على بعض الناس (٤) . وقد اوضح الثعالبي جانبـا مـن هـذا الوضع اذ قال : « اما قولهم اظرف من الزنديق فقد صار مثلا في زمـان كثر ظرفـاؤه وهو زمـان المهدي ، وكانوا يرمون بالزندقة كصالح بن عبدالقدوس ، وبشـار ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد، ومطيع بن اياس . وما منهم في الظاهر الا نظيف البزة جميـل

---

(١) انظر الاغاني ج١٢ ص٩٥-٩٦، وص ١٠٠-١٠٢، ج١٢ ص٧٦، ج٣ ص ٤٠.

(٢) الاغاني ج٣ ص ١٨٢، وانظر قصيدة بشار ص ١٨٣-١٨٤ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ١٤٧ .

(٤) قال ابن مناذر في محمد بن زياد :

يا ابن زياد يا ابـا جعفـر ... اظهرت دينا غير ما تخفـي

مزنـدق الظاهـر باللفظ ... باطن اسـلام فتـى عـف

لست بزنديـق ولكنمـا ... اردت ان توسـم بالظـرف

الاغاني ج ١٨ ص ١٩٦-٧ (ط. الساسي) .

الشكل ظاهر المروءة » (١) وهنا ترى الربط بين الزنادقة وبين الظرف ، وترى الامثلة عن الزنادقة بين الاظراف ، وترى نظافة الظاهر لدى هؤلاء وترى ان المثل يتصل بفترة ظهور الزندقة ونشاطها لاول زمن المهدي ، وقد كان الصولي صريحا في توضيح معنى ظرف الزنادقة ، حين يعلق على قول ابي نواس « تيه مغن وظرف زنديق » اذ يقول « انما قال ذلك لان الزنديق لا يدع شيئا ولا يمتنع مما يدعى اليه ، فنسبه الى الظرف لمساعدته على كل شيء وقلة خلاقه» (٢) .

ويبدو ان هناك جوانب اخرى لاخلاق بعض الشعوبية. هذا واصل بن عطاء يشكو من تصرف بشار وآرائه ويقول « اما والله لولا ان الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست اليه من يبعج بطنه في جوف منزله » (٣) .

وقد كان الاغتيال سبيلا سلكه بعض الغلاة للقضاء على خصومهم من العرب ، وتفننوا في اساليب الاغتيال الى حد جعله مهنة محكمة الاساليب ، وقد عرف هؤلاء الغلاة بالخناقين ، وهم من فرق ظهرت في الكوفة كالمغيرية والمنصورية خاصة، وشمل ذلك جماعات اخرى من السبئية . وقد ظهر الخناقون في اواخر ايام الدولة الاموية واستمر نشاطهم المرعب حتى ايام المهدي . يقول النوبختي عن ابي منصور العجلي رئيس المنصورية « وكان يأمر اصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال ، ويقول من خالفكم فهو مشرك فاقتلوه فان هذا جهاد خفي » (٤) .

وعاث الخناقون فسادا ، خاصة في منطقة الكوفة التي

---

(١) الثعالبي ـ ثمار القلوب (القاهرة ١٩٠٨) ص ١٢٨ـ٩ .

(٢) امالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) النوبختي ـ فرق الشيعة ـ ن. ريتر ـ ص ٣٥ .

كانت محل نشاط الفلاة ، وقتلوا الناس بالخنق او بالتشميم (وهو البنج) يعقبه القتل وبالرجم بالحجارة او بالحبال .

وقد اشتد نشاطهم المريع منذ ولاية خالد القسري ، وتلقوا ضربات قوية منه ومن خلفه ، كما سلطوا ارهابهم زمن المهدي فنكل بهم وشردهم . وقد قدم الجاحظ صورة واقعية مرعبة لفعالياتهم ، تدلك على ان الشعوبية لجأت الى ابشع انواع الارهاب في المجتمع .

يقول الجاحظ « ان الخناقين يظاهر بعضهم بعضا ، فلا يكونون في البلاد الا معا ولا يسافرون الا معا ، فربما استولوا على درب بأسره او على طريق بأسره ، ولا ينزلون الا في طريق نافذ ويكون خلف دورهم اما صحارى واما بساتين واما مزابل واشباه ذلك ، وفي كل دار كلاب مربوطة ودفوف وطبول ولا يزالون يجعلون على ابوابهم معلم كتاب منهم فاذا خنق اهل دار انسانا ضرب النساء بالدفوف وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان : صيحوا ، واجابه اهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء اهل القرى ، وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حمارا لما شعر بمكانه احد » (١) .

ويعطي الجاحظ صورة اخرى لاساليبهم ويقول « ولقد صحب منهم ناس رجلا من الري وفي حقوه هميان ، فكان لا يفارق معظم الناس ، فلما راوه قد قرب من مفرق الطريقين ، ورأوا احتراسه وهم نزول اما في صحراء واما في بعض سطوح الخانات ، والناس يتشاغلون بامورهم فلم يشعر صاحب الهميان نهارا والناس حوله الا والوهن (حبل) في عنقه وطرحه الاخر حين القاه في عنقه ووثب اليه وجلس على صدره ومدّ الآخر برجليه والقى عليه ثوبا واذن في اذنه فقام اليهم بعض اهل الرفقة كالمعين المتفجع فقالوا له مكانك فانه ان رآك خجل واستحى . فامسك

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ج٢ ص ٢٦٤ ـ ٥ .

القوم عنهم وارتحل القوم واعجلوا بصاحبهم ، فلما خلوا به اخذوا ما احبوا وتركوا ما احبوا، ثم حملوه على ايديهم حتى اذا برزوا رموه في بعض الاودية » .

ويذكر الجاحظ شيئا عن تفننهم وبعض اساليبهم في محل آخر ويقول « لان من الخناقين من يكون جامعا وبذلك يسمونه اذا جمع الخنق والتشميم وحمل معه في سفره حجرين مدملكين ملحلحين . فاذا خلا برجل من اهل الرفقة (اي في السفر) استدبره فرمى بأحدهما قمحدونه (آخر راسه) وكذلك ان كان ساجدا، فان دمغه الاول سلبه ، وان هو رفع رأسه طبق بآخر وجهه ، وكذلك ان الفاه نائما او غافلا (١) » .

ومن هذا ترى ان الفلاة لم يكتفوا بالقيام بحركات ضد المجتمع العربي الاسلامي،بل لجأوا الى وسائل الارهاب واستخدموا الحجارة والخنق والحبال للتنكيل بالناس .

(١) ن. م. ص ٢٧١ ومما يسترعي الانتباه ان بعض القبائل مثل بجيلة وكندة اشتركت مع الخناقين في فعالياتهم .

ذيول الشعوبية

وقبل الانتهاء ، يمكننا ان نشير الى جماعات انتقدت العرب او هاجمتهم ولكنها لم تكن تفكر باعادة سلطان او بالقيام بثورات ، ولعلها كانت تفعل ذلك لتكون لها منزلة اجتماعية ولترفع من شأنها . وفي هذا النطاق نستطيع ادخال الاشارات الى عصبية النبط . ويقصد بهم الساميون سكان العراق القدماء ، « ومنهم ملوك بابل » وهم يذكرون ما كان لهم من عز وما صاروا اليه . وقد وجد بين المتكلمين من قال انهم افضل من العرب (١) .

وقد سبق ان اشرنا الى كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والذي اراد مؤلفه ان يظهر طول باعهم في الحضارة والعمران . وقد وردت بعض الاحاديث والاخبار في فضلهم (٢).

كما اننا نجد بعض الاشارات الى محاولة السودان تأكيد فضلهم ومزاياهم ، وقد اورد الجاحظ الكثير من ذلك في

---

(١) المسعودي (ط. اوروبا) ج ٣ ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٢) انظر لسان العرب ج٢ ص ٤٨٧، وياقوت معجم البلدان (مادة كوش).

رسالته الموسومة ب (كتاب فخر السودان على البيضان) . (١)

ولكـن هذه الاشارات انما تدل على محاولة لاثبات كيـان اجتمـاعي لجماعات تحس بحاجتهـا الى ذلك في المجتمع العربي الاسلامـي ، ومن المتعذر وضعهـا في النطاق التهجمي العنيف للشعوبيـة .

---

(١) الجاحظ ـ ثلاث رسائل (باعتناء فان فلوتن، ليدن ١٩٠٢) ص ٥٧ ومابعدها.

نظرة شاملة الى الموضوع

هذه خطوط عامة للحركة الشعوبية ولأوجه نشاطها. ولم ندخل فيها الثورات العلنية المسلحة ، ولم نتناول معها نظرة بعض الرؤساء الفرس الذين ثاروا على العباسيين ونجحوا في تكوين امارات فارسية في القرن الرابع الهجري وما بعده، وان انطوى بعضها على حقد شديد على العرب وعلى عداء للعروبة او للاسلام ، بل اكتفينا بالاشارة الى النشاط الشعوبي ضمن الاطار السياسي للخلافة .

وانت ترى انها حركة شاملة ، اذ وجدت انصارها ودعاتها بين الوزراء والكتاب والادباء والعامة . وهي حركة يتضح فيها العداء للعروبة حينا وللاسلام حينا ، وترى جهدها في كل حقل لثل السلطان القائم وهو في اساسه عربي ، ولاضعاف الاسلام الذي حمل العرب رسالته قبل غيرهم .

وترى ان الحركة الشعوبية تتميز بنبرة عنصرية ،وبالعودة الى احياء التراث القديم (قبل الاسلام) للشعوب الاخرى ، في حين ان حملة الراية العربية الاسلامية انكروا كل نظرة عنصرية، بل ان الفكرة العربية ومفهوم الامة العربية استندا الى مقومات من اللغة والثقافة ومن الاخلاق والسجايا ومن التربية او

البيئة ، كما ان تأكيدهم انصب على الثقافــة العربية الاسلامية.

ولما كانت الاصول الثقافيــة العربية ، من لغة وشعر وامثال وثيقة الصلة بتكوين العرب وبحياتهم ، فانهم دافعوا عنها وعنوا بهــا حيــن حاولت الشعوبيــة قطع الجذور .

وانت ترى الصلة وثيقــة بين الزندقة والشعوبية ، بل ان الشعوبية كانت من الدوافع الاساسيــة للزندقة . وهذا نتيجــة الارتباط الوثيق من ناحيــة السير التاريخي بين العروبة والاسلام من جهة ، وبسبب ارتباط الشعوبيــة والزندقة بمفاهيم وعقائد دينيــة قديمة غير اسلامية ، مجوسية وغيرها ، من جهة اخرى. كمــا ان حركة الغلو تكون جانبــا آخر للنشاط الشعوبي فــي الحقل الديني ، لان الغلو ينطوي في اساسه على عقائد وآراء غير اسلاميــة مزجت ببعض المفاهيم الاسلاميــة ليتسع المجــال لهــا بالظهــور احيانــا .

ومن الواضح ان الشعوبيــة والزندقة تستمدان الوحي من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والاسلام ، وان آراءهما فــي الاساس آراء وافــدة ترى اصولهــا وولاءها خارج المجتمـــع العربــي الاسلامي .

تبين لنا من هذه الدراسة ان الرواسب الحضارية والمجموعات البشريــة التي لا جذور لها في المجتمع العربي الاسلامي حملــت رايــة الشعوبية ، وهي بيــن من يريــد اعادة سلطان اندثر وبين من لا يحلم بذلك بــل يريد تفسيخ المجتمــع العربــي واساســه الاسلامي .

وقد نشطت الشعوبيــة في دور عز العرب ، وفي فتــرة سيادة الخلافة ، فلما تشقق سلطان العرب ، وتضعضعت الخلافة بالحركــات الانفصاليــة ، هدأت سورة الشعوبيــة وخفـــت هجماتها . ومن الطبيعي ان تنشط الشعوبيــة في دور نهضــة العرب وتوسع الاسلام ، لانهــا رأت في هذا التوسع وفي تلــك النهضــة خطرا على كيانهــا وارثها ، وهذه ناحيــة جديـــرة

بالملاحظة والتذكر .

وسلكت الشعوبية سبلا عديدة بين ظاهر ومستور وكلها لها اثرها وخطرها . فهي تريد ان تربك العقائد وتشوه المفاهيم الاسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع واساسه . وهي تنفذ باسم العقل والمنطق الى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الاسلامية اذ تنتقل الى التأويل الذي يخرج النصوص من معانيها الاسلامية الى مفاهيم غريبة بعيدة عن الاسلام .

ونحن نحس بتشدق الكتاب الشعوبيين بالثقافات الاعجمية، وتمجيدهم لكل ما هو خارج نطاق الثقافة العربية الاسلامية ، ونرى تهكمهم بهذه الثقافة وسخريتهم باصولها .

ونرى ان هذا الموقف يرافقه جهل باصول الثقافة العربية الاسلامية ، وتعصب اعمى للثقافات الاعجمية، وهم يفعلون ذلك باسم الحرية الثقافية وتحت ستار الفكر المتحرر . والشعوبية تندد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الاسلامية ، وتذهب الى التحلل وتنزع الى المجون وتدعو الى نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض كليا مع القيم العربية الاسلامية ، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة وتتبجح به بدعوى الحرية الاجتماعية وهي تدرك ان هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط ولاضعاف الكيان الاجتماعي .

وتحاول الشعوبية طمس الذات العربية ، وقطع الجذور تاريخيا وثقافيا ، وتفتيت الوحدة ، فتبدأ بمهاجمة الانساب العربية القديمة ، وتتهجم على العرب القدامى وتظهرهم بمظهر التاخر والهمجية وتسخر من ثقافتهم وتشكك في شعرهم بما تدخله فيه من انتحال ، وتهاجم العربية ، وهي بعد ذلك تهاجم المروءة العربية القديمة بما فيها من فروسية وكرم ووفاء وفصاحة .

ثم تأتي الشعوبية الى العرب في الاسلام فتنكر دورهم في حمل الرسالة الانسانية وتحاول طمس دورهم الحضاري ، فتدعي

ان الحضارة العربيـــة الاسلاميـــة ما هي الا اقتباسات مـــن الاعاجم ، تريـد بذلـك زعزعة الثقة بالذات وصرف الانتباه الى الثقافات الاعجميـــة وهي تفعل ذلـك في وقت تحاول فيه احيــاء التراث الاعجمي وتمجيـد الآثار الاعجميـــة وتعمل على بثها في المجتمع العربي الاسلامي وعلى تحويله عن ذاته .

وتريد الشعوبيـــة بعد هذا ان تطبع الادارة والحياة العامة بطابع اعجمي فتترجم الكتب عن الفارسية في المراسيم والعادات وشكـل الحكم والاخلاق ، وتضع كتبا ورسائل تنسبها للقدمـاء، وتعمل على بثها وترويجهـا .

واذا كان الفقهاء هم حملة لواء الثقافـة العربية الاسلامية اصلا، فان الشعوبية ارادت ان تجعل من كتّاب الدواوين حملـة للتـراث والثقافات الاعجميـة تحاول عن طريقهم ان تؤثر فـــي التوجيه الفكري والثقافي .

ولم تكتفِ الشعوبية بكل ذلك ، بـل انهـا لجـأت فـي اندفاعهـا وعنفهـا الى الاغتيال وتوسلت لذلك بالخنق واستعملت المخدر والحجارة والحبال .

ولنا ان نتساءل عن سبب النشاط الشعوبي في العـراق بصورة خاصة . فنلاحظ ان العراق واد خصيب ، يمثل امتدادا طبيعيـا للجزيرة العربية ، ولذا اتته الموجات البشرية من الجزيرة وطبعتـه بالطابع السامي العربي ، اما الاقوام الشرقيـة فلا تأتيه الا غازيـة ولكنهـا ترتد بعـد فترات قصيرة او طويلة تاركـــة وراءهـا مجموعات بشريـة تبقى فيه . ولهذه المجموعات جذورها الثقافيـة وهي جذور خارجية .

وقد كان العراق ساحـة صراع عسكري وثقافي واحتكـاك بشري بيـن الساميين والفرس في القديم . ولما جاءت آخر موجة سامية ، وهي الموجـة العربية ، بالفتوحات ، تقدمت وغمـرت فارس وبلغت اواسط اسيا ، وركزت الطابـــع العربـي الاصيل للعراق بعد فترة من الخضوع للغزو الفارسي . ولم تمر فتـرة

حتى ظهر الصراع بين الاسلام والديانات الفارسية ، وبين العربية واللغات والثقافات الاعجمية .

والعراق بلد حدي ، فهو نهاية المنطقة العربية شرقا ، وهو المركز الذي ارسلت منه الحملات نحو الشرق ، ونقطةانطلاق العربية والاسلام في توسعهما في هذا الاتجاه . وهو يجاور المنطقة الفارسية ومن المنتظر بازدياد الوعي الفارسي ورد الفعل المجوسي ان يتجه الصراع نحوه وان يشتد فيه .

ومن الواضح ان وضع العراق الجغرافي الحدي يفرض عليه مهمة تتجاوز نطاقه الجغرافي حضاريا وثقافيا ، لانه باب المنطقة الثقافية العربية ، ومنتهى المنطقة الحضارية . ونحن نعرف ان العرب خرجوا برسالة ، هي رسالة الاسلام اولا ،وهي رسالة الحضارة العربية الاسلامية ثانيا، ولذا فان الصراع في العراق انما هو صراع في سبيل العروبة والاسلام ، وخاصة وانه اصبح في العصر العباسي قلب الحضارة العربية الاسلامية ومحور السلطان العربي ومقره .

ثم ان العراق يقع على طرق المواصلات الرئيسية بين الشرق والغرب ، فهو قلب الطريق البري بين البحر الابيض المتوسط واواسط آسيا ، وهو على الطريق البحري من الهند والشرق الاقصى الى البحر الابيض والغرب . ولذا فان الآراء الثقافية والخبرات الحضارية تنتقل اليه ، كما ان الديانات تلتقي فيه .

وفي الوقت الذي يعتز فيه اهله بثقافته وحضارته الراسخة ، سامية ثم عربية ، فان المجال المفتوح للرواسب البشرية والحضارية ، وللجماعات والآراء الوافدة يؤدي الى احتكاك متصل والى اصطدام حضاري وفكري هو مصدر حيوية وخصب ، وهو سبب صراع واحتكاك متصلين . وفي الوقت الذي ينظر فيه اهله الى ارثهم وجذورهم الثقافية ويرون حاضرهم امتدادا لها فان الجماعات الوافدة تنظر الى الخارج

وتستمد منه التوجيه وتعمل على قطع الجذور .

واذا كانت هذه العوامل تتصف بالاستمرار ، فان هنـاك عامـلا تاريخيا يجدر ذكره ، وهو الثورة ، الثورة العباسية التي رفعـت الغطاء .واستغلت كافـة المجموعات والاتجاهـات لضرب الامويين فوجدت فيهـا الاتجاهات الشعوبية مجالا رحبا ، حتى ظـن البعض ان الفرصـة حانت لضرب السلطان العربي كليـا . وكـان طبيعيـا ان تفسر كل جماعـة اهداف الثورة العباسيـة تفسيرا يلائم وجهتها ، وكان نشاط الشعوبيين قويا في البـدء وفعالياتهم واسعـة لدرجـة تجلب الانتباه حتى انكشفت وجهتهم بعـد فترة وعندئذ احس المجتمـع العربـي بالخطـر الـذي يهـدده .

وان كان لنا في التاريخ من خبرة نفيد منها ، فانهـا تشير الـى رسـوخ الذات الحضاريـة العربية وانتصارهـا ، والـى اجتيازها المحنة وهي اقوى جذورا .واكثر غنى وشمولا . ولكـن هذا لا يعنـي زوال الشعوبيـة ، خاصة وان موادهـا ومقوماتها لما تزل موجودة ، .وهي حيـن تكمـن انمـا تنتظـر الظـروف المؤاتيـة لتواصل نشاطهـا ، ولكـن الاتجاهات والاساليـب الرئيسيـة تبقى هي هي . وكثير مـن صفحات الماضي تبـدو حية بتجارب الحاضر ، كمـا ان تجارب الحاضر تنجلي اتجاهاتها بدراسـة الماضي . فامـا الزبـد فيذهب جفاء ، وامـا ما ينفـع الناس فيمكث في الارض .

مراجــع

الاصفهاني ، ابو الفرج: الاغاني . طبعــة دار الكتب ، وطبعـــة الساسي (حين يشار اليها) ٢١ جــزءا، مطبعة التقدم ، القاهرة .

امين ، احمد : ضحى الاسلام (ط . ٥) القاهرة ١٩٥٦. ٣ اجزاء

الانبـــاري : الاضداد ، باعتناء ابـــي الفضل ابراهيم، الكويت ١٩٦٠ .

بارتولــد : الحضارة الاسلامية، تعريب حمزة طاهر. القاهرة ١٩٤٢ .

Browne E.G. :A Literary History of Persia vol. I Cambridge 1929

البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة، باعتناء سخاو، ليبزك ١٩٢٥ .

البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخاليـــة . باعتناء سخاو، ليبزك ١٨٧٨ .

التنوخي : الفرج بعد الشدة . جزآن ، القاهـــرة ١٩٠٤ .

التوحيدي : الامتاع والمؤانسة . ٣ اجزاء ، باعتنـــاء

احمد امين واحمد الزين ، القـــاهـرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ .
الثعالبي : الاضداد، باعتناء ابي الفضل ابراهيـــم، الكويت ، ١٩٦٠ .
الثعالــبي : ثمار القلوب . القاهرة ١٣٢٦ هـ .
الجاحظ : البيان والتبيين . ٤ أجزاء ، باعتناء عبد السلام هارون ، القاهـــرة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) .
الجاحظ : ثلاث رسائل . باعتنـــاء فـــان فلوتـــن ، ليدن ١٩٠٢ .
الجاحظ : الحيوان . باعتناء عبدالسلام هـــارون ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٨ .
Gibb H.A.R. : The Social Significance of Shuubiyya (Pederesn 1955)
الجهشياري : الوزراء والكتاب . باعتناء مصطفـــى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٨ .
الجوزي (ابن) : المنتظم في التاريخ ج ٥ ــ ج ١٠ . حيدر آباد الدكن (١٣٥٧ ــ ١٣٥٩ هـ .)
Goldziher. Ign: Muhammadanische Studien, 2 Vols Halle 1888 - 1890
الرجيلي : الشعوبية (ط . ٢) بغداد ١٩٦٠ .
الدوري، عبدالعزيز : العصر العباسي الاول ــ بغداد ١٩٤٥ .
الدوري، عبدالعزيز : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام . (ط. ٢) المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦١ .
الدينوري : الاخبار الطوال . باعتناء جـــرجاس ، ليدن ١٨٨٨ .
السيد المرتضى : الامالي .
Sadighi : Les Mouvements Religieux Iraniens Paris 1938 .

شيرازي،احمد افشار: ماني ودين‌او . طهران ١٣٣٥ هـ.ش.

الطبري : تاريخ الرسل والملوك . ١٢ جزءا . المطبعة الحسينية .

عبد ربه (ابن) : العقد الفريد . ٧ اجزاء ، القاهرة ١٩٣٥.

فياض ، علي اكبر : محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايـران . (جامعة فاروق الاول ، الاسكندرية) .

القاسم بن ابراهيم : كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع، باعتناء جويدي ، روما ١٩٢٧ .

قتيبة (ابن) : عيون الاخبار ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٩٢٥.

قتيبة (ابن) : المعارف ، القاهرة ١٩٣٤ .

كرد علي ، محمد : رسائل البلغاء (ط. ٤) ، القاهرة ١٩٥٤.

المبرد : الكامل . مطبعة الهلال ١٩٢٢ .

المسعـودي : التنبيه والاشراف . القاهرة ١٩٣٨ .

المسعودي : مروج الذهب . ٤ اجـزاء (ط . دار الرجاء) القاهرة ١٩٣٨و٩ مجلدات باعتناء دي مينار ، باريس (١٨٦١ ـ ١٨٧٧) .

منظور (ابن) : لسان العرب ٢٠ جزءا ،بولاق (١٣٠٠ ـ ١٣٠٧ هـ) .

النديـم (ابن) : الفهرست . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

النوبختي : فرق الشيعة . باعتنـاء هـ . ريتـر ، استانبول ١٩٣١ .

ياقـوت : معجم الادباء ، ٧ مجلـدات باعتنـاء مرجوليوث ، مجموعـة تذكـار جب ، القاهرة (١٩٠٧ ـ ١٩٢٦) .

اليعقوبي : التاريخ . ٣ اجزاء ، النجف ١٩٣٩ .

ثبت المواضيع

٣٠٠٠/٨١/٨٧٢